ANNIE VIVANTI




# TERRA DI CLEOPATRA

للكاتبة الايطالية الكبيرة السيدة آنى ڤيڤانتى

نقله من الايطالية




بمحكمة استئناف مصر الاهلية

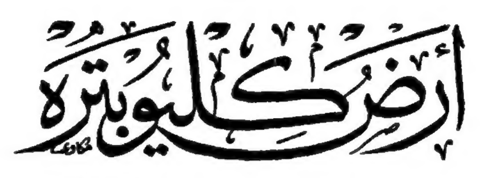


الثمن ٦٠ مليما

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٥ — ١٩٢٧

ANNIE VIVANTI



# TERRA DI CLEOPATRA

للكاتبة الايطالية الكبيرة السيدة آنى ڤيڤانتى

نقله من الايطالية

طه فوزى

بمحكمة استئناف مصر الاهلية



الثمن ٦٠ مليما

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٥ — ١٩٢٧

# الاهداء

الى حضرة صاحب الدولة الزعيم الجليل

## سعد زغلول باشا

يا سعدُ كم لك من نعمى مخلدة — فى الشرق راح لسان الغرب يرويها
كالشمس فى الشرق اذ تجلو أشعتُها — كواكبَ الغرب فى أقصى مساريها
بنور رأيك نالت مصر بغيتها — رغم العواذل وابيضت لياليها
وأصبحت جنـة غنـاء عالية — يفوح ذكرك طيباً فى مغانيها
مرّتْ (ڤيڤانتى) بها مرالنسيم وفى — أردانهـا نفحات من مجانيهـا
فعطّرت جو (روما) عندما نشرت — أريج ما حملت أعطافها فيهـا
آيات صدق واخلاص مبيَّنة — عن مصر مقتبس منها معانيها
ترجمتها ليراها الشعب عن كثب — وهأنا لزعيم الشعب أهديهـا

طه فوزى

# مقدمة

## بقلم المستشرق الكبير الدكتور لويجى رينالدى

عزيزى فوزى

ان هذا الكتاب النفيس الذى قمت بنقله الى لغة بلادك الجميلة لهو أصدق مرآة تجلت فيها محاسن هذه البلاد المحبوبة وعجائبها الخالدة ومجدها التالد والطارف . ولا بدع فان السيدة (آنى ڤيڤانتى) واضعة هذا السفر الجليل لهى من أكبر الكتاب فى أوروبا ومن أعظمهم شهرة فى عالم الادب وليس اسمها بالمجهول فى مصر ذاتها . وانك بتعريبك لهذا الكتاب قد قدمت لابناء وطنك كاتبة ذات شهرة عالمية تتحدث بأجمل أسلوب وأبلغ عبارة عن عظمة مصر وجمالها وأمانى شعبها الكريم العريق فى المجد والمدنية . والى جانب هذا العمل المبرور قد دللت على شديد اخلاصك ووطنيتك الصادقة كما برهنت على كرم أصلك المصرى وغزارة مادتك وواسع اطلاعك على الادب الايطالى

ولا أشك فى أن هذا المجهود الشريف سيلقى من النجاح والتوفيق ما هو جدير بالعبقرية والنبوغ اللذين أعرفهما فى الصديق الأعز الذى أقدره من سنين طويلة وأعجب بسمو مداركه وعظيم مواهبه

المخلص

القاهرة فى فبراير سنه ١٩٢٧

لويجى رينالدى

# في سكون الصحراء المهيب

## ١

## السفر

يقيناً انني حالمة . اذ ليس من الممكن أن يكون كل ما يقع لي صحيحا ويخيل الي أنني في حلم لذيذ من تلك الاحلام الجنونية الغريبة التي عند ما يحاول الانسان أن يتذكرها أو يستعيدها في الصباح تتبدد ويختلط بعضها بالبعض ثم لا تلبث أن تتلاشى وتختفي في نسيان عميق

. . . بعد هنيهة سأستيقظ في منزلي الصغير الهادىء المشرف من التل اذ تأتي مرغريتا المخلصة وتدق بابي في رفق وتقول : سيدتي لقد بلغت الساعة السابعة ولكن في نفس ذلك الوقت لا يزال يأخذني ذلك المنظر البديع ويملك على مشاعري

أنا في صحراء ليبيا أعتلي جملا وأتقدم نحو قبر توت عنخ

## ٢

آمون وأمامى عربى طويل القامة عظيم الجسم يطفو ويرسب فوق جمل آخر والى جانبى يركض زنجى يرتدى قميصا طويلا أزرق اللون يلطم باقدامه العارية وجه الرمل فيسمع لها توقيع رقيق ونغمة عذبة خفيفة وتنحدر عمامته البيضاء الكبيرة الى عينه اليسرى المكفوفة . ونرى أمامنا على هذه الصحراء الذهبية التى لا يبلغ الطرف مداها سربا من نساء طويلات عجيبات المنظر ملتحفات بملاءات سود يحمل فريق منهن على رءوسهن أوعية كبيرة تفيض بالمياه ويمضين فى سبيلهن فى صمت ووقار وعند ما أقترب منهن يرفعن الى عيونهن الواسعة المندهشة فأحييهن بقولى : سعيدة . سعيدة

يسمعن تحيتى فيجرين نحوى ويحطنني بنظرات ملؤها العطف والسرور ويقلن لى جميعا « سلمك الله » ويمددن الى أصابعهن المخضبة بالحناء يمسسن بها أطراف ثوبى ثم يرفعن الى شفاههن الأيدى التى لمسننى بها . وتخلع احداهن من معصمها تميمة مؤلفة من ثمان قطيطات فيروزية خضراء منتظمة فى سلك واحد وتلقى بها الى حجرى

## ٣

أريد أن أكافئها . أريد أن أشكرها . . ولكنها تجفل مسرعة وتلحق برفيقاتها اللاتي كن قد ابتعدن عنها ويسرن جميعاً نحو هضبة « طيبة » حيث يقف في دهشة تمثالا « ممنون » العظيمان منذ آلاف السنين وسرعان ما ترى تلك الاشكال الانجيلية السوداء كأنها سطر مظلم فوق صفحة ذلك السهل الذهبي ثم لا تلبث أن تختفي بين سحب الرمال

اليس حلما هذا ؟

لا . ليس هذا بحلم كما تنبئني تلك القطيطات الفيروزية التي في يدي ولكنني اريد أن اتحدث في ترتيب ونظام وأريد أن أوضح أفكاري وأستعيد بدقة تلك الظروف التي أوجدت اضطراباً جديداً في حياتي القلقة المضطربة

لم يكن الذنب ذنبي في الواقع ولكنها غلطة « فلورا » وقبعتها الباريسية فلقد حضرت عندي في أوائل الشهر المنصرم بعد أن عادت من رحلتها في باريس وكانت اذ ذاك غاية في الرشاقة والتأنق على عادتها بل ربما كانت في ذلك اليوم اكثر تأنقا منها في أي يوم آخر وكانت تفوح من حولها نفحات

شارع « دى لا پيه » الذى لا يعرف له نظير . تبادلنا التحيات الاولى المعتادة ولم يكد يستقر بها المقام حتى ابتدرتنى بسؤالها قائلة : « ألا تعجبك قبعتى ؟ واستمرت فى حديثها بلهجة التأكيد قائلة : وألا ترين فيها كف مدام « ليفس ليڤى » ؟ !

نظرت بالاهتمام الواجب الى هذا النوع من غطاء الرأس الذى تحلى به رأسها فلم تعجبنى ولم ترق فى نظرى وقلت لها انى أجدها فظيعة وعند ذلك نظرت الى فلورا مرتاعة وهزت رأسها علامة الحزن والأسف وقالت لى :

انك لست بصحة جيدة يا آنى ولست بحالتك الاعتيادية وقد لاحظت ذلك حديثا يجب أن تتناولى دواء مقويا أو تستشيرى طبيبا ....

فقلت لها بصوت منخفض : وذلك ما لم يجعلنى استحسن غطاء رأسك ! !

* * *

ومع ذلك فاننى أعترف بان عبارتها أثرت فى نفسى تأثيراً كبيراً ففى نفس هذه الليلة عند ما نظرت فى المرآة وجدتنى

هزيلة شاحبة اللون فذهبت مبكرة الى الطبيب وقلت له أرجوك ياحضرة الطبيب أن تصدقنى الخبر . أمريضة أنا ؟ فسألنى قائلا بأى الآلام تشعرين ؟ وبعد فحص استغرق وقتا طويلا ظهر لى كأنه يريد أن يقول انه لا يجد بى شيئاً . فقلت له أنا لا يمكننى تحديد آلامى تماما فانها غامضة فمثلا أشعر بضيق شديد ( وكنت فى هذه الساعة أفكر فى قبعة فلورا ) وأنسى كثيراً ولا سيما ما يتفق لى من الاعمال مع الثقلاء من الناس وكثيراً ما أفقد المظلات والاكياس وأشعر بالخوف من الرد على الرسائل ومن الزيارات

عند ذلك أخفى الطبيب ابتسامته وسحب من أمام منضدته رزمة من أوراق العيادات وكتب عليها بعض كلمات ثم نزع الورقة المكتوبة وألقاها الىّ فقرأتها دهشة :

( الهدوء والعزلة لمدة شهرين ! ! )

هدوء وعزلة ؟

فقال نعم . ولمدة شهرين كاملين فلا تتحدثين مع أحد ولا تستقبلين أى زائر ولا تفتحين خطابا ولا تكتبين وتعزلين

تماما عن العالم . وأعيد لك وصيتى مرة ثانية « السكون والعزلة »

فقلت له وأين أجد السكون والعزلة وكيف تكون العزلة ممكنة للانسان فى بلد يعرفه فيها الجميع ؟

اعملى سياحة . اذهبى واسكنى حيث لا تعرفين أحداً

مرت بذهنى بسرعة جميع مدائن ايطاليا وفى كلها أقمت ردحا من الزمن وفى كلها لى معارف وأقارب وأصدقاء وخطرت ببالى بعد ذلك لندن وباريس وبرلين وفينا ونيويورك وفيها كلها أقمت فيما مضى وكلها كثيرة الجلبة والحركة والجماهير — أخيراً تنهدت وقلت اذن يجب أن أذهب الى الصحراء !

فقال لى الطبيب . حسنا جدا تفعلين اذهبى الى مصر وفيها تجدين من الصحراوات ما تشائين

الى مصر ؟ فكرة حسنة . اننى لم أذهب اليها قبل اليوم ولا يسكن فيها أحد ممن أعرفهم . نعم فى مصر سأجد العزلة والسكون

لم تمض نصف ساعة حتى كنت أجدنى فى مكتب شركة

الملاحة أمام الموظف المختص أسأله عن أول باخرة تسافر الى مصر فيقول : اليوم فى الساعة الثانية تقلع الباخرة اسبيريا من مدينة جنوة الى مصر . أنظر الى ساعتى فأجد الوقت متأخراً فأسأله عن غيرها فيقول وستبرح الباخرة حلوان مدينة تريستا يوم الجمعة فرجوته أن يحفظ لى مكانا « كابين » فى « حلوان »

وعندما وصلت الى المنزل لم أستطع أن أقاوم الرغبة الشديدة التى قامت بنفسى فى اخبار أعز أصدقائى بنبأ سفرى تليفونياً فقلت لهم جميعا : وداعا ! أودعكم جميعا . فانى مسافرة الى مصر فكانت دهشة عامة من الجميع

أالى مصر ؟ ماهذه الفكرة ؟ ولكن لماذا ؟

انى ذاهبة الى الصحراء لأبحث عن العزلة والسكون !

ثم أدخل غرفتى وأجلس الى مكتبى لاكتب الى الذين لا يملكون آلة تليفون من أصدقائى بهذا الخبر :

وفى صباح الغد حضرت عندى فلورا وهى تقول

ولكن كيف ذلك ؟ أتذهبين الى مصر ؟ فأقول نعم

ما أحسن حظك ؟ هل يمكنني أن أذهب معك أنا أيضا الى مصر ؟ فقلت لها ولماذا لا تذهبين ؟

ففكرت فلورا مليا ثم قالت : حقيقة لماذا لا أذهب الى مصر ؟

وعند ذلك قلت لها : أعذريني ياعزيزتي فان لدى كثيراً من الاعمال يجب أن أقضيها . يجب أن أجهز الحقائب وأودع أقاربي وأهتم بمسألة جواز السفر فحيتني فلورا وانطلقت مفكرة وهي تقول :

ومن يدرى أى نوع من « التواليت » يؤخذ فى الصحراء ؟

حضرت بعد ذلك كثيرات من صديقاتي لزيارتي وكن يقلن لى : أتذهبين الى مصر ؟ ما أسعدك ! هل يمكننا أن نحضر نحن أيضا ؟ فكنت أجيبهن جميعاً باسمة بقولى : اذن لكنت أكون سعيدة جدا . فيأخذن فى القاء آلاف الاسئلة والاستيضاحات علىّ فيستفهمن عن السفر والطقس والمعيشة هناك وغير ذلك وكن يقلن لى وهن منصرفات : ما أسعدك

وانها لخسارة أن لا نكون فى رفقتك فكنت أقول لهن :
نعم . وأية خسارة !

وفى الليل خاطبتنى بالتليفون احداهن « صوفيا » زوجة رسام مريض بالنورستانيا قائلة ان لديها خبرا عظيما فقلت وما عسى أن يكون ؟ قالت : لقد قلت لزوجى انك مسافرة الى مصر وانك تكونين سعيدة لو ذهبنا نحن أيضا معك فكان مترددا فى أول الأمر ولكننى حركت فى نفسه الشوق لرؤية الاشياء الفنية التى يمكن أن يجدها هناك من مزروعات المناطق الحارة والنخيل والموميات ومناظر الغروب وغير ذلك فكان هذا كافياً لاقناعه فانظرى : يا للسرور !

فقلت أنا أيضاً بحزن ! نعم يا للسرور ! !

وفى نفس هذه الليلة حضرت زوجة أخى وهى تكاد تطير فرحا وسرورا وتقول افرحى . افرحى . ان چينو موافق !

موافق مع من ؟

معنا فاننى قلت له انك رجوتنى كثيراً وألححت على فى

أن أرافقك فى رحلتك الى مصر ولما كان هو مسافراً الى لندرة فى الشهر المقبل ولا يحب أن يتركنى وحدى فقد سمح لى بالسفر معك وقد تقرر كل شىء فيا للفرح ويا للسرور ! !

فقلت إى وربى يا للفرح ويا للسرور ! !

فى هذه اللحظة قرع جرس التليفون بشدة : أنتى أنا . أنا أورتنسيا سنحضر نحن أيضاً يا عزيزتى آنى وبيترو متحمس جداً لهذه الفكرة ويشكر لك اقتراحك الجليل وسيأخذ أجازته الآن بدلا من شهر اغسطس وسيحضر أيضا المهندس . نعم ارماندى ذلك المهندس الشاب الذى هو صديقنا الحميم وهو مغتبط جداً بهذا السفر لان مصر كانت دائما حلمه اللذيذ الذى لا يفتأ يذكره

* * *

وفى المساء كان بالمحطة جمهور كبير محتشداً أمام عربة النوم الملحقة بالقطار المسافر الى تريستا وكان هناك كل أصدقائى وأصدقاء أصدقائى الذين كانوا مسافرين معى الى مصر فكانت هناك ضحكات وتمنيات وتوصيات !

عانقى الاهرام !

سلمى على أبى الهول !

احذرى من التماسيح !

وكانت فى أثناء ذلك تبدو لفتات غريبة من جانب العربة المجاورة ويسأل أحد الموجودين بها قائلا : ماذا هنالك ؟ ولم كل هذه الجلبة والغوغاء وهذا الجمع الغفير ؟

فيجيب آخر :

انها كاتبة تذهب الى الصحراء لتبحث عن الوحدة والسكون !!!

## ٢
## العبور

نحن على ظهر الباخرة حلوان تلك السيارة البحرية السريعة والسماء صافية زرقاء والمياه ترقص من تحتنا رقصاً متواصلا فيتجعد وجهها قليلا قليلا ونسمع صفير الباخرة

المزعج المخيف يعلن للمرة الثالثة ابتعادها عن الشاطئ فانظر اليها من الشرفة وهى تنهض متباطئة

وداعا ياتريستا ! ها هى حلوان تنزلق خارجة من الميناء بخفة ورشاقة . أنظر من حولى فاذا باخبار الاضطرابات الوطنية المتجددة فى مصر أصبحت حديث عدد عظيم من الركاب وشغلهم الشاغل وكان على ظهر الباخرة جم غفير من اشخاص مجهولين قادمين من جميع انحاء العالم

كان معنا فى الباخرة عدا أصحابى الذين قدموا معى من ايطاليا : فلورا وامرأة أخى والرسام وزوجته وأورتنسيا وزوجها والمهندس المجتمعين فوق القنطرة يسمرون ويضحكون شاب شاحب اللون غزير الشعر قادم من « أورجواى » الى فلسطين يحمل علما ليضعه على « جبل الزيتون » وجماعة من الالمان بينهم كونت روسى عابس الوجه تبدو عليه علائم الحزن يصطحب معه عروسه الشابة المريضة بصدرها الى رمال اسوان كما كان هناك أيضا قليل من الانجليز وجمهور من الامريكيين الذين لابد من وجودهم فى مثل هذه الاسفار وكان

بين أولئك الانجليز السكسونيين رجل بدين فى مقتبل العمر قصير القامة يروح ويغدو من أعلى الى أسفل واضعا يديه فى جيبيه ينظر الى الناس جميعا بعين ملؤها الازدراء . أما وجهه فقاتم اللون وعيناه المتقاربتان من بعضهما يجعلانه أشبه شىء بابن عرس أو سرعوب وكان يقال عنه بانه شخص عظيم ولكن لم يكن بين الركاب من يعرف له اسما وكان هناك أيضا شابان فارسيان مطربشان عيونهما نارية متوهجة ويحكى لون وجهيهما العاج وتراهما منقبضين عن الناس وربما كان ذلك لخوفهما من فضول الاوروبيين وعدا هؤلاء جميعا نفر من أعيان تورينو وسراتها هم عنوان ثروة ايطاليا ورمز قوتها وتفكيرها وبرفقتهم عالم كبير من اساتذة الجامعة اشتهر اسمه فى تاريخ الفن عن أبيه وهو معروف ومحبوب منا جميعا

وبينما كنت أسير نحو الشرفة المزهرة طرق سمعى نشيد عال بطىء تتخلله نغمة محزنة فسألت أحد ضباط الباخرة الذى كان فى هذه اللحظة يمر بجانبى عن مكان هذا الغناء فقال لى انه فى الدرجة الرابعة حيث يوجد مائة وثلاثون يهوديا

يهجرون بلادهم الى فلسطين — هل تريدين أن تنظريهم ؟ وسبقني الى مخزن المؤن المزدحم وسرت من خلفه حتى صرنا وسط المغنين فاذا هم شباب يانعون عيونهم براقة وشعورهم متجعدة وشكلهم يدل على أنهم من ذلك الشعب المختار المبعثر من آلاف السنين وكان بينهم خمسة أولاد أو ستة لا يزالون فى سن الطفولة فيقتربون منى بدهشة ويحيطون بى جميعاً ويحيوننى بتحيات خائفة

سألت أحدهم وكان قريباً منى : أألمانى أنت أم بولاندى ؟ فأجابنى بقوله كلا يا سيدتى أنا يهودى !

ثم تقدم آخر وقال . ولهذا السبب أتينا من بولندة — ولما كنت أجهل السياسة البولندية وتخيفنى منهم تلك العيون التى ظلت محملقة فى وجهى مدة طويلة قلت لهم : اننى أعرف أحد مواطنيكم المشهورين وهو الفنان الكبير بادروفسكى

فسكتوا جميعا وقوبلت كلماتى هذه بجمود ثلجى وما هى الا برهة حتى تقدمت منى صبية صغيرة وقالت : ان بادروفسكى هو خصمنا الالدود

فاعتذرت لهم وأظهرت لهم مزيد أسفى فأخذ هؤلاء الشبان يقصون على بحرارة وشوق آلامهم وشكواهم وآمالهم فى أن يستعيدوا وطنهم القديم .. ثم أحييهم وأتركهم فيأخذون فى ترتيل أنشودتهم

* * *

أصعدفوق القنطرة وأجلس على مقعدى الطويل بجانب سيد نبيل تظهر عليه سيماء الارستقراطية له شاربان أبيضان وقد جلس يطالع فى كتاب أمكننى أن ألمح عنوانه ( تدخينة أفيون . للكاتب الكبير كلود فارير ) وبمجرد أن رآنى جلست الى جانبه طوى كتابه بهدوء وبعد لحظات قليلة أدار وجهه ناحيتى ووجه الى كلامه بلهجة باريسية واضحة وأخذ يحدثنى فى موضوعات شتى ثم عطف على السياسة الدولية وسألنى عن رأيي فى الادارة الانجليزية فى السودان وعن عصبة الامم فتسرعت فى الاجابة عن الاولى والثانية بكل ما اعتقدته قبيحاً وعند ذلك قدم لى نفسه بابتسامة لطيفة قائلا انه اللورد مستون عضو مجلس عصبة الامم وقال انه

موفد الى السودان بمهمة من الحكومة الانجليزية وعند ذلك همس فى أذنى طبيب الباخرة الذى كان يسمع حديثنا قائلا : «انك ستسببين طردك من مصر قبل أن تصلى اليها» ولحسن حظى دق الجرس يدعونا لتناول الغذاء فسررت للتخلص من اللورد مستون الذى جعل مع ذلك يحيينى تحية الاصدقاء — والانجليز يحبون الصراحة ! ! !

أدخل مع كل الداخلين الى غرفة الاكل الطلقة الفسيحة وأرى بسرور ممزوج ببعض الرعدة أنهم قد أعدوا لى مكانا مشرفا على المائدة الى يمين القبطان الذى سمعت بعضهم يقول عنه وأنا فى تريستا « ان القبطان فابيانو هو أحسن ملاحى الخط غير أنه رجل له طبيعة جافة وخلق وحشى» . أخذت مكانى الى جانبه وجعلت اسأل نفسى قائلة ترى بأى الاحاديث يمكننى أن اتلطف بها معه واحدث بها ذلك الرجل الفظ ؟ ولقد قررت قبل كل شىء أن لا اكلمه لا عن البحر ولا عن البارومتر ولا عما عدا ذلك من الموضوعات الخاصة بالبحار

ولكن هاهن صديقاتى من جهة أخرى يهاجمنه ويقذفنه

بزوبعة من الاسئلة كيف الحال اليوم . وكيف يكون البحر غداً ؟

هل البارومتر مرتفع . هل هو منخفض ؟ .

هل يصعد . هل ينزل ؟

كل ذلك والقومندان يحييهن جميعاً بابتسامة عذبة صبورة كريمة فسرى ذلك عني وبدأت تتبدد مخاوفي منه . انتقلت صديقاتي من الحديث عن الجو وأخذن يتحدثن عن « التواليت » والزينة فتسمع فلورا تقول : أنا لا أحمل معي غير ثياب من « الموسلين » لاني خبرت بأن في مصر حر مميت . بينما تقول امرأة أخي . أما أنا فلم أحضر غير فانلات ومعطف من الفرو لانهم أكدوا لي أنها تمطر ثلجا في القاهرة كل ليلة . وتصيح امرأة المصور قائلة : لقد أوصى موظف شركة « كوك » بعدم أخذ شيء سوى الخوذة وثياب السفر كما بلغني الآن أن فندق شبرد غاية في الابهة والجلال وكان يجلس أمامي على المائدة ذلك العظيم الانجليزي ذو العيون البراقة والى جانبه سيدة أمريكية من « بلتيمور »

لاحظت أنها تسأله فى شوق ولهفة قائلة : وبعد ذلك قل لى
ماذا حصل ؟ فأجابهـا الانجليزى بهدوء وتؤدة قائلا : وبعد
ذلك بمجرد أن وجدت تلك الكتلة الصخرية الناتئة أخذنا
نحفر فى كل الجهات فحفرت فى الشرق ولـكنى لم أجد شيئا
وفى الغرب لا شىء ثم حفرت فى الشمال فلم نعثر على شىء ما
وعند ذلك عيل صبر اللورد كارنارفون وطلب منا أن نكف
عن العمل ولـكننى عاندته وحفرت فى الجنوب — وكان
الانجليزى يقطع الحديث بتنـاول « سردينة » بينما تتأمله
محدثته ساكتة وهى ممسكة بزيتونة على طرف شوكتها ثم
تسأله : هل حفرتم فى الجنوب ؟

فيجيبهـا بقوله : حفرت فى الجنوب فوجدت . . . .
وقبل أن يتمم حديثـه تضع الامريكية الشوكة من يدها
وتقول ماذا وجدتم ؟

انتظرى سأقول لك فيما بعد ثم يستمر فى أ كله وهو
يضحك ضحكة عالية

عند ذلك التفت نحو القومندان فابيانو وسألته بقولى :

من عساه يكون ذلك الرجل الجالس أمامنا فقال كيف لا تعرفينه ؟ . انه كارتر .

كارتر ؟ هوارد كارتر ، يالله ! ! انه هو بنفسه . لقد كنت أظنه قد مات !

فابتسم القومندان وقال : ها هو كما ترينه لا يزال حياً يرزق وفى صحة جيدة ! !

## ٣

# هوارد كارتر وعصفوره

حقيقة كانت تبدو على هوارد كارتر علائم الصحة والعافية وأصبح باختفاء سيده كارنارفون موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم وبرجوعه من القاء محاضرته السابعة والخمسين فى أمريكا صار الرجل المنظور اليه من الجميع فالكل يحفلون به والكل مصغون لما يقول

صعدنا اذ انتهى الغذاء الى غرفة التدخين لتناول القهوة

فجلس هو وجلسنا جميعاً من حوله مشتاقين لان نسمع من نفس شفتيه قصة اكتشافاته العجيبة وكان أحد الحاضرين يعتقد كما كنت أعتقد أنا فى بادىء الامر بأنه توفى فقال مغمغما بصوت منخفض . عجيب هذا لقد كنا نحسبه فى عداد الاموات ! وسمعه كارتر فقال مبتسما : لست أنا انما اللورد كارنارفون هو الذى مات . وعند ذلك سألته الامريكية بلهجة عصبية : وهل كان موته انتقاماً من الملك الذى انتهك قبره ؟ فقال كلا يا سيدتى وأخذ يشعل سيجارته وبعد أن أشعلها قال لقد مات بالتدرن الرئوى .

أثر فى نفسى هذا الجواب الجاف فأخذت أفكر فى الثروة الطائلة التى نالها ذلك الموظف السابق بمصلحة الحفر والتنقيب والذى ارتفع فجأة بموت سيده الى أعلى ذرى المجد والشهرة العالمية . ولكنه كان فى ذلك الوقت قد ابتدأ فى سرد قصته قائلا : وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساء وكانت ليلة مقمرة حينما عثرت بأول سلم من سلالم القبر الذى كنت أبحث عنه من نحو ست سنوات فوقف

عمالى الوطنيون ورفعوا أعينهم وأكفهم الى السماء وأخذوا ينشدون أنشودة دينية — قال هذا وسكت برهة ثم عاد الى حديثه قائلا — ولا يفوتنى أن أقول لكم انه فى أوائل تلك السنة كنت قد ذهبت يوماً الى الموسكى سوق مدينة القاهرة القديم ودخلت فى دكان من دكاكين العاديات لكى أشترى ما يروق لى منه عند ما طرق سمعى تغريد عصفور فى قفصه المعلق بظهر الدكان . وخرجت من الدكان دون أن أشترى شيئاً

بعد هذا التصريح الخطير سكت كارتر وأخذ يحتسى قهوته ببطء ولكن عيوننا لم تكن لتتحول عنه ثم قال ومن الغريب أن أقول لكم أن صوت هذا العصفور شغلنى وبقى ماثلا أمامى فى نومى طول ليلتى ( وعندذلك تنفست الامريكية وتنهدت تنهداً عميقاً ) وفى الغد رجعت الى دكان العاديات ولكنى لم أشتر نفائس ولا عاديات بل اشتريت العصفور وأخذت القطار فى نفس هذه الليلة الى الاقصر وكنت كلما اقتربت من سهل طيبة كلما كان يكثر العصفور من الغناء

( وعنـد ذلك سأل المصور قائلا : وهل كان يغنى أيضاً فى الليل ؟ ) فأسكتناه خوفا من أن يقطع علينا الحديث واستمر كارتر يقول وكنت كلما اقتربت من الحفر يخيـل الى أن العصفور يغنى بصوت مرتفع — وقد استمر العصفور يغرد فى أثناء هذه الاعمال الشاقة طوال هذه الاشهر ثم يخفض المتكلم صوته ويقول : ولـكن ها هو فى اليوم الذى تفتح فيه المقبرة يسكت العصفور ويبقى صامتاً حتى اذا ما فتحنا النـاووس يأخذ فى التغريد بصوت متهدج ولـكن فى تلك الساعة الرهيبة . . ( وهنا سكت كارتر وظهرت عليه علائم الحزن وأمسكنا نحن أنفاسنا ثم يقول : وفى الساعة التى كنت أكسر فيهـا شمع الصندوق الذهبي الذى يحتوى على صورة الفرعون يحضر الىّ زنجى مسرعا ويصيح . العصفور ! العصفور ! فتصيح الامريكية هل مات ؟ هل هرب ؟ فيفرك كارتر جفنيه ويقول العصفور ابتلعته أفعى وعند ذلك ساد سكون عظيم ولم يجرؤ أحد على الـكلام فيخفض كارتر صوته ويقول ومن الغريب اننا عندما فتحنا الصندوق رأينا

هناك على جبهة القناع الذهبي الذى يغطى وجه الفرعون مثوى الافعى مدفونا بين أزهار اللوتس النضرة المحفوظة بتمام العناية — قال هـذا وسكت وكنا نحن متأثرين غاية التأثر من هذه القصة المدهشة المؤثرة وعند ذلك وبتلك العقلية الانجلوسكسونية التى تحب المزاح والتى يحلو لهـا أن تسخر من شعور الغير واحساسهم يسرع كارتر بالـكلام فيقول وهل تريدون أن تعرفوا ما هو أول شكل وجدته مدفونا فى التـاووس الملـكى لقد كانت صورة شارلوت . شارلوت بنفسه التى تحكى صورة شارلى شابلين فى شخصه وشواربه القصيرة وأحذيتـه الـكبيرة وقبعته العظيمة المستطيلة التى تشبه الشمامة وبعد فترة قضيناها فى دهشة استنكارية أخذ الانجليز الحاضرون يضحكون ضحكا عالياً بينما كانت الامريكية تمسح عينيها اللتين كانتـا لا تزالان تبللهما الدموع لوفاة العصفور فتظهر عليهـا علائم الخجل وبينما كنت أعتقد أنا أن قصة العصفور انما وضعها كارتر لتكون موضوع محاضرة من محاضراته السبعة والخمسين

وعند هذه النقطة اقترب من جميتنا أستاذ جامعة تورينو وبصحبته النبيل ليونيللو فنتورى ووجه الى كارتر بعض الاسئلة قائلا : هل تتفضل بأن تقول لنا ما هى أهميـة قبر توت عنخ آمون بالنسبة لما اكتشف قبـله من القبور وأى مركز تشغله فى تاريخ الفن المصرى تلك الاشياء التى وجدتها؟ فقال انها تشغل مكانا متواضعا فان كثيرا من المقابر المكتشفة فى الماضى تزيد عن هذه أهمية وأجاب على سؤال علمى آخر موجه اليه من الاستاذ فأخذ يدور ويتخلص كما لو كان لا يريد أن يقول شيئاً ثم التفت الينا واستمر يقص حكاياته المسلية ولا يسعنى الا أن أقابل بين هذه الشهرة العظيمة التى بلغها ذلك الشاب الذى خلق له مواطنوه اسما عظيما بذلك الصمت الذى يلتزمه أحد كبار علمائنا ذلك الرجل المتواضع الذى يرجع اليـه الفضل فى ايجاد اكتشافات أخرى ذات أهمية كبرى فانه فى ذلك القصر القديم المترب الذى أقيم فيـه المتحف المصرى بتورينو أحد متاحف العالم الأثرية العظيمة يعيش ارنست سكيا باريللى الذى يكاد اسمه يكون مجهولا

فى خارج دائرة علماء العاديات المصرية الضيقة وهو يعمل فى عزلة صامتة وربما كان وهو محتبس فى ظلال تلك الغرف يفكر فى حزن ومضض فى شواطئ النيل الزاهرة ورمال طيبة الذهبيـة والوديان الضيقة التى كشفت أمامه آلاف الاسرار والالغاز ويعود ويفكر فى المتاعب الشديدة التى تحملها والليالى القاسية التى قضاها ساهرا وفى فلاحيه المساكين الذين كانوا يحبونه حبا جما ويقدسونه بل وربما كان يبكى مشروع أبيدوس العجيب الذى كان موكولا اليه . أبيدوس التى أعطتها له الحكومة المصرية يوم كان لا يزال جلالها مخفيا عن الانظار جزاء نشاطه المدهش ولفخر ايطاليا العظيم — فانه عند ما كانت الحملة على أهبة السفر الى الديار المصرية اذا بالحكومة تتغير وتأتى وزارة جديدة توقف الحملة قائلة « أى رأى هذا أن نذهب للحفر والتنقيب فى مصر وأمامنا هنا كل هـذه الاعمال ؟ » فوقف ارنست سكيا پاريللى ولم تسافر الحملة وبذلك لم يكن فخر اكتشاف أبيدوس من نصيب ايطاليا

٤

# الوصول

كما ينتهى الحلم تنتهى مدة عبورنا البحر الابيض المتوسط فبعد ساعات قلائل تظهر « كريت » جزيرة السحر والأحلام على بحر سطحه كالشمع كأنها زهرة بديعة ونرى جبل « ايدا » المكلل بالثلوج ترتفع قمته اللامعة المضيئة فى السماء اللازوردية

هنا ولدت آلهة اليونان ومن هذه الصخور تدفقت ينابيع شعراء الاولين وفيها نبتت القصص القديمة ويدور بى الفكر الى صرخة الشاعر المحتضر حيث يقول . آه أيتها الآلهة ايدا اسمعينى وأنا أموت هنا »

ولكن ها هى المنحدرات الزرقاء والقمم الوردية العالية تتضاءل على البعد ثم تتلاشى . . .

الاسكندرية ! يا للضوضاء والجلبة ! ها هم جماعة من الشياطين والمردة السود بعمائمهم وقمصانهم البيضاء الفضفاضة

ينقضون على الباخرة يدفع بعضهم بعضاً ويصيحون ويشيرون ويتقدمون نحوى ويستولون على امتعتى وكل حاجياتى . حقائبى واكياسى ومظلتى وعلبة برانيطى وكيس نقودى وأنا أحاول أن أفهمهم أنها لا تزال جميعها مفتوحة وبأننى لا أجد مفاتيحها وأطلب منهم أن يتريثوا قليلا ولكنهم يهزون اكتافهم ويقولون ماعلهش. ماعلهش. فظننت أن هذه الكلمة معناها أنهم لا يفهمون ثم ينحدرون كالقردة من سلم الباخرة وهم يتأبطون أمتعتى وننزل جميعا من الرصيف الى الجمرك بين جمهور من الحمالين والتراجمة والادلاء ووكلاء الفنادق والموظفين وكلهم يصيحون ويهللون بأصوات تصم الآذان فأدور بعينى فى كل مكان بين تلول الامتعة أبحث عن حاجياتى وأشير بدون أمل لاناس لايسمعون وأرى بينهم زنجياً يسير وقد حمل على رأسه علبة قبعاتى وفى يده محفظتى ولا أدرى كيف نجحت أخيراً فى العثور على حاجياتى كلها . حقيقة كنت اعتقد بأمانة العرب أمانة فى نظرى ليس فيها أى شك فأيقنت اذ ذاك أن ثقتى هذه كانت فى محلها . أما الموظفون

لا بسو الطرابيش فقد لقيت منهم لطفا ومجاملة جديرين بكل اطراء وكنت أجيب على استيضاحاتهم واسئلتهم بقولى « ما عليهش » فكان يظهر لى أن هذه الكلمة تسرهم كثيراً فيثقون بكلامى ويدعوننى أمر دون أن يفتحوا حقيبة من حقائبي فانطلق بسرعة الى قطار القاهرة المنتظر

وعند ما أصل الى القطار أجد أن الحمالين السود وقفوا ينتظرون قدومى وقد حفظوا لى « ديوانا » وضعوا فيه أمتعتى وأدخلونى فيه وأغلقوه علىّ لكى يمنعوا غيرى من دخوله وازعاجى فيه ثم يضعون أيديهم تارة على جباههم وأخرى على قلوبهم وينصرفون باسمين

أما القطار فيتحرك متى شاء الله . . وأما أنا فاستلقى على وسائد العربة واتنفس الصعداء . . . أنا الآن فى أرض مصر وهذا الفكر يهيجنى ويحرك نفسى حتى لأشعر كأن أعصابى تتوتر من قوة هذه الأرض السحرية . تلك الأرض المظلمة المقدسة

أتجسس من خلال الزجاج وقد أرخى الليل سدوله

وليلتنا ليلة شرقية بديعة فالسماء مرصعة حتى الأفق بالنجوم وعليها مسحة من النور الضئيل وينطلق القطار مخترقا سهلا مقفراً حزينا يظهر عليه من وقت لآخر شبح لعزبة صغيرة سنجابية اللون قليلة الارتفاع مكونة من بعض بيوت صغيرة من الطين متجمعة حول نخلة أو نخلتين وكان يخيل الى أنى أسمع الاصوات العميقة تنبعث فى ذلك السكون العظيم كأنها أنين صادر من المغاور يحمل الى تحية الاجيال الغابرة كما كان يخيل الى أن الصحراء تمد الىّ أيديها الشاحبة فتجذبنى اليها

هزنى قرع عنيف على باب مدخل عربة القطار الزجاجى فأفتح واذا بعامل وطنى من عمال السكة الحديدية يدخل ويقول لى بصوت متهدج كلاما لا أفهمه فأجيبه باسمة بكلمتى المعتادة « معلهش » ولكن جوابى هذا يدهشه كثيراً فيتركنى ويخرج وسرعان مايعود الى ومعه موظف آخر اكثر فصاحة منه ويكرر هو أيضاً بلهجة أشد نفس الكلمة التى قالها سلفه فأجيبه أيضا بقولى معلهش

ماعلهش ؟ ثم يقول بالانجليزية وماذا تقصدين يا سيدتى بقولك ماعلهش انى أقول لك أن القطار يحترق وأنت تجيبينى بقولك ماعلهش أى لا يهمنى فعند ذلك فهمت معنى تلك الكلمة التى قالها لى الحمالون على ظهر السفينة والتى أسمعها تتكرر حولى فى كل لحظة ويستعملها المصريون أكثر من أى كلمة سواها للتعبير بها عن صبرهم وأناتهم واستسلامهم للقدر اذا ما نزل بهم حادث أو وقع لهم مكروه فانهم مهما أصابهم أو أصاب غيرهم يهزون أكتافهم ويقولون ماعلهش .

وما هى الا هنيهة حتى وقف القطار فى العراء ونزلت أنا وجميع الذين كانوا فى العربة المحترقة وانتظرنا فى ذلك الهواء الليلى النقى البليل يسفع جباهنا وحقائبنا مكومة من حولنا وأخذ عمال السكة الحديدية يفصلون من القطار هذه العربة التى كانت تتصاعد منها سحب متقطعة من الدخان

بلغنا القاهرة متأخرين فى منتصف الليل وكان كل أصدقائى قرروا مثلى أن ننزل فى فندق شبرد ولما دخلنا هذا

النزل الفخم الفاخر بوجوهنا البادية عليها آثار التعب واجسامنا المنهوكة القوى بعد أن قطعنا هـذا السفر الشاق الطويل وجدنا انفسنا أمام حفلة رقص حافلة . أنوار متعددة الالوان زينات مشرقة تأخذ بالالباب وموسيقى نابضة تصم الآذان فنمر مسرعين بين هذه الزينات ونحيي بعضنا بعضا ونحن على المصعد على أن نلتقى فى صبيحة الغد فى الساعة الثامنة

وكانت غرفتى الواسعة الهادئة تطل على حديقة ساكنة وبعد قليل من الزمن يبتعـد صوت الجازباند حيث أروح فى نوم حلو لذيذ .

٥

# صباح فى القاهرة

استيقظ مبكرة فأفتح زجاج نافذتى لأحيي الشمس الافريقيـة وبالهواء النقى الجديد الذى يسكرنى وما هى الا هنيهة حتى يقرع باب غرفتى فافتح للطارق فينحنى أمامى زنجى عظيم الجسم طويل القـامة يلبس ملابس بيضـاء طويلة

فضفاضة وعلى رأسه عمامة حتى يكادوجهه يبلغ الارض ويقول ان الحمام جاهز يا سيدتى فأقول له أشكرك . ولكن يظهر أن تشكرى له يدهشه فيفتر ثغره عن ابتسامة حائرة كأن الزنوج لم يتعودوا على أن يشكروا ! !

وبعد الاستحمام ألبس ثيابى بسرعة وأتناول فنجانا من الشاى الفاخر وأنزل الى جلبة الشارع وضوضائه مخترقة صالة الفندق الكبرى

لم تكد قدمى تطأ الشارع حتى يحيط بى جمهور عظيم من التراجمة والادلاء والباعة بملابسهم الجوخية ذات الالوان الغريبة . يريدون أن يبيعونى آلاف الحاجيات من عقود وأساور وسجاجيد وصور وجعارين ويريدون أن يأخذونى الى آلاف الاماكن التى يزورها السياح الى القلعة والازهر والاهرام والمتاحف والمساجد والاسواق ومقابر الخلفاء ....

سيدتى : أنا موسى تعالى معى أنا موسى !

سيدتى . لا تأخذى موسى خذى حسنا . أنا حسن . حسن يذهب بك الى حيث تشترين عاديات بخمسة جنيهات

وبخمسة قروش أيضا اذا شئت !!

لاتسمعى كلامهم يا سيدتى ولا تضيعى فرصة وجود محمد يحيى ترجمان اللورد كتشنر تفضلى ها هى بطاقتى !!

اسمعى يا سيدتى اسمعى . فالتفت فاذا برجل يدنى فمه من أذنى ويقول بصوت خافت : أنا آخذك هذه الليلة لرؤية الرقص المصرى وسيكون برفقتنا أحد رجال الشرطة حيث نذهب الى حى . . . . . . والى قهاوى الحشيش

وبينما هم يصيحون حولى وأنا أسأل الله انقاذى من هذه الجلبة يظهر على حين غفلة أحد رجال البوليس وينقض عليهم ويحمل على بعضهم بكلتا يديه لكما وضربا فيهربون جميعاً وأسير مسرورة دون أية مضايقة أخرى ولكنى لا أكاد أبلغ ميدان الاوبرا القريب من الفندق حتى يعودوا الى سيرتهم الاولى من جديد ومن يدرى من أى مكان حضروا ؟؟

تذكرى موسى . لا تنسى حسن . ومحمد !!

فكرى فى اللورد كتشنر !

فكنت أقول لهم كلهم حاضر . نعم . لن أنسى. متذكرة

وأضيف كلمة باكر بالانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية فعند ذلك يضحكون وتبدو أسنانهم بيضاء كالثلج وعيونهم البراقة ويعودون نحو شبرد ليبحثوا عن فريسة أخرى وكانت الساعة قد كادت تبلغ الثامنة فأتذكر الموعد الذى ضربته مساء الامس لأصدقائى فأعود وراءهم أنا أيضا

ها هم أصدقائى قد وقفوا جميعاً على الشرفة ينتظرون قدومى وها هى فلورا بملابسها الصيفية الخفيفة وتأنقها المعتاد وامرأة أخى بملابس الجولف والفرو على ذراعها وأورتنسيا بملابس السفر وعلى رأسها خوذتها العريضة بينما اشترى صديقنا المصور طربوشا قرمزيا بفكرة الاندماج باللون المحلى وها هم جميعا يستقبلوننى بصيحات السرور لقد كنا نبحث عنك ولقد تقرر برنامج اليوم وغدا وبعد برهة ستكون هنا السيارات وعندئذ نذهب لزيارة المساجد والقلعة وهليو بوليس ثم الى الاهرام وأبى الهول ومن ثم الى سقارة ثم نعود هنا فى مساء الغد

ولكنى لم أرتح الى هذا البرنامج وشعرت فى نفسى

بشيء يمنعني وأحسب كأنني لا أقدر ولا أريد الذهاب في زمرة من الاصدقاء في سيارات لرؤية تلك الاشياء حيث يجب أن يذهب الانسان وحده مفكرا خاشعا وحيث يجب أن يكون الفؤاد منفردا ليشعر بحرارة الذكرى ولذة التاريخ ولكن كيف التخلص من هذه الجماعة الضاجة المسرورة وكيف السبيل الى ذلك هل أتمارض وأدعى أنى أشعر بألم في رأسي ولكن ليس هناك من يصدقني ومع ذلك فلن أبالي باحتجاجاتهم وسأحتبس في غرفتي حتى تغيب عن سمعي أصوات سياراتهم وتختفي في جلبة الشارع

أنا لي غرض آخر يختلف عن غرض رواد الصحراء وزوار الآثار . أنزل الى المشي وأنادي موظفاً سويسريا من موظفي الفندق وأسأله قائلة : أيمكنك أن تخبرني أين يوجد هذه الايام سعد زغلول باشا ؟ فيكرر الرجل وهو يرتعد خوفا اسم الوزير الوطني المستقيل ويتلفت يمنة ويسرة كما لو كان يخشى أن يسمعنا أحد من الانجليز النازلين بالفندق ويقول بصوت منخفض :

يجب أن يكون الآن فى مينا هاوس ثم يستمر قائلا وهو يكاد يهمس فى أذنى . حيث هو الآن سجين الانجليز

أسجين هو ؟

فيقول مبتسما هو سجين بالفعل وان لم يكن اعتقاله رسمياً لانى أعلم أنه طلب اليه أن لا يبرح الفندق دون اذن السلطات البريطانية

فأفكر برهة ثم أسأله بقولى : وأين يوجد هذا الفندق؟

انه على حافة الصحراء .

وهل هو يبتعد كثيراً من هنا ؟

مسيرة ساعة .

اذن فلأذهب الآن الى مينا هاوس لاستقصى أخبار الزعيم الوطنى العظيم الذى كان حتى الامس معبود الشعب المصرى ومثال العزة المصرية وعنوان فخار مصر والذى يقع اليوم ضحية اتهام شنيع فان الانجليز يرمونه بتهمة التحريض على قتل السردار البريطانى السير لى ستاك باشا ولكن لا أحد يصدق هذه التهمة مطلقا ولا سيما الذين يعرفون متانة

أخلاق الزعيم النبيل زغلول الحديدية وعبقريته وبعد نظره فلقد أتاحت لى الفرص أثناء مفاوضات الصلح فى باريس أن أتعرف به وكنت اذ ذاك أقيم فى « جران أوتيل » حيث كان يشغل الوفد المصرى جناحا فاخرا فى الدور الاول

وكنت أرى فى تلك الايام جمهورا عظيما من أجناس وأمم مختلفة يروح ويغدو فى حديقة الشتاء واذكر كيف كان رأس سعد زغلول باشا الذى تتقد فيه عينان عميقتان حادتا النظر ويعلو طربوشه الاحمر على رءوس جميع الزعماء والموفدين ولقد دعانى فى ذلك الوقت الى حفلة شائقة لست أنساها ما حييت وكان عدد المدعوين فيها ثلاثة عشر مدعواً كنت أنا المرأة الوحيدة بينهم وكان الاثنى عشر مدعواً الباقون ممثلى الشعوب المظلومة الواقعة تحت حكم بريطانيا العظمى : مصر وايرلندة والهند وافريقيا الجنوبية . وهأنذا أحاول اليوم للمرة الثانية رؤية صديق ذلك اليوم

أشير الى عربة واقفة أمام فندق شبردفأركبها وينطلق جواداها العصبيان السريعان بخطوات سريعة فينهبان الارض

نهبا وما هى الا دقائق حتى أرى وسط المدينة يبتعد خلفنا
بضجته وضوضائه واذا بنا نقترب من نهر عظيم يمخر عبابه
عدد عظيم من الشراع اللاتينية . . هو النيل . ذلك النيل
المقدس الذى حملت مياهه الذهبية المباركة الى القرب من
الشاطئ موسى الصغير فى سلته . ونجتاز قنطرتين ونمر بالجزيرة
الخضراء ثم نعطف الى شارع مستقيم كبير الاتساع بعيد
المدى حتى لكنت أحسب أن لا آخر له ولا نهاية تصطف
على كلا جانبيه شجرات اللبخ الباسقة التى يسميها المصريون
« ذقن الباشا » فتلقى على الشارع ظلالها الرفيعة . الآن
تندر المنازل وتمتد يمنة ويسرة أرض مهجورة واطئة ومجدبة
وها هى الابل البطيئة النبيلة تتحرك بخطوات واسعة فى
أنحاء الصحراء يقودها غلمان عراة الاقدام ممزقو الثياب
ونرى بعض الاعراب السائرين الى جانب الطريق على ظهور
حميرهم البيض المحلاة بشرائط وعقود متعددة الالوان بينما
النساء يسرن على أقدامهن فى التراب وهن ملتفات بملاءاتهن
السود فى شكل عظيم وعزة ملوكية ومن آن لآخر يمر

عربى ممتط دراجة فيثير زوبعة من الغبار ثم تعاود فيها قافلة الجمال والبدو والنساء والاطفال أنشودتها الشرقية

ولكن ماذا أرى هنالك على آخر الطريق ؟ هنالك فى آخر السهل المترب ؟ وما هو ذلك الشىء المرتفع النائى من وراء الاشجار فيشق الفضاء ويناطح السحاب ولا يزال بعيداً ولكنه مع ذلك عظيم فى عظمته وشعريته . لله ما أعظمه وما أجمله ! فأفهم أنها الاهرام عند ما أشعر بدمى يهرب من جسدى . أى نعم هى أهرام الجيزة العجيبة الواقفة كالحارس على حافة الصحراء . انها هناك لا تزال بعيدة ولكنها مباغتة اذ تتمثل أمام عينى فأمد يدى دون أن أشعر علامة الدهشة والاستغراب

لا تزال العربة سائرة تطير فوق الرمال المتصاعدة ولا يوجد على جانبي الطريق سوى شواطىء ذهبية متموجة من الرمال والاهرام تبدوا أكثر ارتفاعا وأكثر اقترابا . تخرج العربة من ذلك الشارع بغتة وتنعطف الى اليمين فترتقى نحو كومة من الاشجار والنخيل والجميزات التى يرى فى وسطها

قصر كبير أبيض ـ ذلك هو مينا هاوس فأنزل من العربة وأخترق ممشاه المتسع حيث تلهب حرارة اليوم الصيفى فى الطريق المكشوف نارا عظيمة عزيزة على الانجليز وفى الواقع فقد لاحظت أن جميع النازلين بالفندق سواء منهم الجالسين أو المتمددين على المقاعد الطويلة كلهم من الانجليز السكسونيين الذين تظهر على محياهم علامات عدم الاهتمام التى تميز السائح البريطانى فى الخارج

وعند ما أفكر فى الغرض الذى جئت من أجله أشعر بأنى أفقد شجاعتى ولكنى أنظر الى مدير الفندق السويسرى اللطيف والى الخدم الاوروبيين النشطين والى الخدم السودانيين المنتشرين فى زوايا الفندق وهم واقفون لا يبدون حراكا وكلهم من ذوى الوجوه المغلقة التى لا تظهر عليها عاطفة ولا يستطيع الانسان ادراك سرها ولا الى التغلغل فيها سبيلا فمن أى هؤلاء يمكننى أن أسأل عن زغلول باشا ؟ ؟

٦

# فى فندق مينا هاوس

ممن أستطيع أن أسأل عن زغلول باشا ؟

وعبثا حاولت أن أبحث بنظرى بين الموجودين عن شخص الزعيم الوطنى نزيل هذا الفندق الفاخر أو سجينه فلم يظهر فى البهو ولم أره فى غرفة الاكل وقت تناول الغذاء

وكنت أشعر أنه ليس من الحكمة ولا من اصالة الرأى فى شيء أن أسأل عنه فى هذا الوسط كما كنت أشعر أنه ليس من السهل معرفته أو الوصول اليه وفندق ميناهاوس كباقى فنادق مصر الكبرى يديره سويسريون متدبرون كثيرو الحيطة حنكتهم التجارب يضعون فوق كل شيء وقبل كل شيء عملاءهم الانجليز من سياح ونزلاء ولذلك فان أى انسان يظهر عطفه أو اهتمامه بمسألة قضية مصر الوطنية أو بشخص زعيمها ( الذى منع اسمه منعاً باتاً ) فانه لامحالة يخلق حوله جوا من عدم الثقة ان لم يكن من الشبه والشكوك

ويخاطر بتعريض نفسه للطرد وللابعاد ولمغادرة أرض الفراعنة بحجة أنه من النزلاء الغير المرغوب فى اقامتهم

بهذا كنت أفكر وأنا أقلب فى يدى صفحات عدد قديم من اعداد جريدة « الديلى جرافيك » فى دهليز هذا الفندق المدهش الواقع على هامش الصحراء . ها هو يتقدم نحوى ويأخذ مكانه الى جانبي ضابط بريطانى لا يزال فى سن الشباب أشقر اللون له عيون زرقاء فولاذية وتدل هيئته على جود هو فى انجلترا علامة التعليم والتهذيب . نخطر ببالى القول الجرىء « هاجم الاسد فى عرينه »

ولماذا لا أهاجمه ؟ ولماذا لا أسأل مباشرة من ضابط انجليزى عن أخبار خصم الانجليز الفخور ؟؟

وضعت الجريدة التى كانت فى يدى وأدرت وجهى الى النوافذ المفتوحة للشمس الافريقية العظيمة وتفوهت بهذه العبارة التى يتبادلها الانجليز عادة فى الخارج « ان جو هذه البلاد بديع حقاً »

قلت ذلك بلهجة يستعملها نبلاء الانجليز وهى عندهم

الحد الفاصل بين أبناء البيوتات الكبيرة وبين غيرهم من السوقة فأجابني قائلا بنفس اللهجة : حقيقة ان الجو لا بأس به ولكن الشعب المصرى لا يطاق !

وبعد ذلك ساد سكوت طويل كنت أخشى معه ان ينقطع الحديث ولكنه يستمر قائلا : وما هو الأثر الذى تركته فى نفسك شجرة القطر «عش الغراب» القائمة هناك ؟ وأومأ برأسه ناحية الصحراء

انى لا أفهم يا سيدى ما تقول

ألم تلاحظى أن أبا الهول اذا ما نظر اليه من الخلف يرى كأنه شجرة عظيمة من شجرات « عش الغراب » ؟

آه انك تعنى أبا الهول . انى لم أره بعد .

ولقد شعرت بهذا التصريح انى ارتفعت وكبرت فى نظر محدثى كثيرا لان السيدة السائحة التى تأتى الى مصر ولا تبادر برؤية أبى الهول غداة وصولها لابد وأن تكون انسانة راقية ذات مقام وتربية عاليتين ولم أكن مخطئة فى تقديرى هذا وعند ذلك قال هناك من يقولون بأن أبا الهول

ليس امرأة وانما هو رجل وانهم عند ماحفروا حوله فى الرمال عثروا على لحيته وهى احدى تلك اللحى المستطيلة المضفورة التى كان يعلقها المصريون بذقونهم عند المناسبات وفى الحفلات الكبرى ويظهر أن لحية أبى الهول كان يبلغ طولها نحو الخمسة عشر متراً !

قال ذلك فضحكت وضحك هو أيضا ورأيت أن الفرصة قد حانت لمواجهة الاسد فسألته قائلة :

وماذا تم فى أمر ذاك الوزير الوطنى المستقيل ؟ وماذا كان اسمه ؟ ثم نطقت بالحروف الاولى من اسمه

فقال نعم ان اسمه زغلول ولقد كان هنا حتى الامس ونصح له بالعودة الى بيته فى القاهرة

هل هو مريض ؟

أى نعم . وياله من رجل خيالى مسكين انه لم يعد سوى بطل ميت لقضية ميتة ثم استمر فى حديثه قائلا انك لا يمكنك أن تتصورى محبة المصريين واجلالهم له فما كان يسمع فى الطرقات غير صيحات « ليحى زغلول » وفى المنازل

توقد الشموع الى جانب صورته ولحسن الحظ أن الرصاصة التى قضت على السير لى ستاك كانت أيضاً مميتة لزغلول ولاحلامه التى كان يحلمها بمصر مستقلة ويمكننا الآن أن نبقى مطمئنين مدة خمسين سنة على الأقل لن نسمع فى خلالها من ذلك شيئا ولا يقلقنا صوت زغلول

فعنـد ذلك لاحظت عليـه بقولى : وهل لا ينقطع الدساسون عن أثارة الفتن والدسائس ؟

نعم انهم يقولون إن السردار انما قتلناه نحن ثم ضحك ضحكة عالية وقال وهكذا الحال فانه كلما وقع مصادفة حادث وكان من ورائه فائدة لامبراطوريتنا ولو بطريق غير مباشر فاننا نعتبر اننا نحن الذين عملناه أو أوحينا به

فقلت له وهل صحيح ما يقولون من أن السردار كان طيبا جداً وان المصريين كانوا يحبونه حبا جما ثم واذا لم اكن ناسية أو لم تخنى ذاكرتى أن السير لى ستاك لم يكن انجليزيا بل كان ارلنديا — فلم يجب على ذلك وانما كنت اشعر بعيونه الفولاذية الحادة المتسـائلة تتسلط على تحاول الوصول الى

أعماق نفسى فاقف وأقول :

كفى ولنذهب لرؤية « عش الغراب »

واجيبه بايماءة برأسى وانصرف مخترقة الدهليز حيث اخرج من الفندق

٧

# اهرام الجيزه

أنظر حولى وانا واقفة فى الشرفة العالية ولما يحن الفصل الذى يقصد فيه السائحون أرض مصر فلا ترى السيدات ناشرات مظلاتهن مرسلات نقبهن فوق وجوههن ولا الرجال ترتكز نظاراتهم فوق انوفهم والجميع يصعدون مع كل نفس من انفاسهم عبارات الارتياح والاعجاب بما ينظرون وبما يسمعون . والصحراء ما زالت صحراء فلا شبح يتحرك فوق تلك الساحة الصفراء التى تمتد أمامى .

الشمس ساطعة وأرى فى ظل الهرم الكبير شيئا قاتم

اللون كأنه بقعة ناضرة على صفرة الرمل وأتأمله فاذا هو بدوى يغط فى نومه وهو متمدد الى جانب بعيره الجاثم على ركبه فوق الرمل فيبدو متنه الصبور يعلوه رحل قرمزى اللون

درت بنظرى فى هذه الساحة العظيمة المقفرة الواقعة بينى وبين الهرم فحانت منى التفاتة جهة الشرق فاذا بى أرى سهلا زبرجديا ينم لونه البديع عن تسلسل ميـاه النيل المحيي بين نباته واشجاره فهالنى ما وجدته من البون الشاسع بين غنى هذا السهل وبؤس جوار الهرم فتيقنت أن أرض مصر لا تنبت شوكة ولا تخرج عشبة الا اذا روتهـا مياه النهر المقدس وأدركت على حين بغتة كل شدة الانذار الانجليزى الأخير الذى أرسلوه الى زغلول باشا والذى دسوا بين تضاعيف سطوره التهديد بقفل خزانات النيل الازرق الواقعة على بعد مائة وثمانين ميلا الى جنوب الخرطوم وتحويل مجرى النيل فيظهر لى فى كل شناعته وقسوته وأفهم سر ألم هذا الخلق الذى تقبض على مصادر حياتهم نفسها يد أجنبية ويكفى أن تضغط هـذه اليد حتى تموت مصر ويخيل الى اننى اسمع

شكوى هذه الأرض العطشة المجدبة التي قال عنها أوستين تشامبرلن أخيرا فى مجلس العموم نكتته المشئومة : « نحن لا نريد ان نجيع مصر عطشا »

لانهم لا يريدون ولكنهم يستطيعون ! !

ويخيل الى ان مصر تسمع فى صميم احشائها بمرارة وألم رنين كل دقة معول يضربها الانجليز فى خزان مكوار العظيم الذى يشتغلون فيه بهمة لا تعرف الكلال مدة أربع سنوات والذى سيتم بعد شهور قلائل ويخيل لى أن تلك الفنارات الكهربائية الضخمة التي تنير لهذه الاعمال الجبارة فى مكوار تخط بأحرف من نار فى سماء مصر هذه العبارة :

« سيكون فى استطاعتنا ان نجيعك بالعطش »

أنزل من شرفة الفندق وأخترق الحديقة وأسلم قدمى للطريق المترب الذى يضيع فى الصحراء .

هأنذا فوق هذه الرابية الجرداء بين كثبان الرمل المنعزلة فى سفح الهرم الكبير ذلك القبر الذى جرؤ الملك كيوبس منذ تسعة وعشرين قرنا قبل المسيح على تشييده

وربما كان قد تنبأ بان ملكه سيدوم ثلاثين عاماً وأن عبيده المائة ألف سيكون عندهم الوقت الكافى لبنائه وابلاغه كبد السماء قبل أن يدركه الموت .

وفوق هذه الرابية العالية يبدو من الجهات الاربع الاصلية ذلك المدفن المدهش الذى ربما كان أقدم الآثار وأفخم وأعظم ما شيدته يد الانسان

ايه أيتها الأيدى البشرية الصغيرة . يا أيدى العبيد الضعفاء المساكين ! بأية حيلة وبأية قوة أمكنك أن تحركى جلموداً واحداً من تلك الجلاميد الصخرية العتيدة وكيف استطعت أن تنقلى هذه الصخور من شواطئ النيل البعيدة ورفعها الواحدة فوق الاخرى الى مثل هذا الارتفاع الجنونى ؟

يا آلاف الايدى المسكينة ! يا من أبقيت هذه المعجزة قائمة منذ آلاف السنين ماذا كان نصيبك وماذا كانت مكافأتك . هل كان جزاؤك الوحيد أن سمح لك الفرعون أن تستريحى هنا وتذوبى حيث دفنوك فى جوف هذه الارض تحت هذه الرمال ؟ ؟

انني أريد أن أفكر وأميل الى الاعتقاد بان أيديا أخرى ملائكية ناعمة بيضاء لو قدر لك البحث يوما لما تجاسرت على لمسها ولما جرؤ أصحابك على النظر اليها . أتمنى لو تبعث لك اليوم والى الابد بالزهور والرياحين ممزوجة بالعزاء والحنان والمواساة

وبينما كنت أحلم على هذه الصورة يقوم بعض الاعراب الذين كانوا ممددين تحت ظلال الهرم كأنهم أشباح نشرت من طيات الارض ويقتربون مني ويحيونني بقولهم « سعيدة سعيدة » . ويشير لي ترجمان طويل القامة يرتدي ملابس جوخية طويلة برتقالية اللون الى أحد جوانب الهرم ويقول بالفرنسيه ! أنظري انظري !

فأرفع عيني الى الأعلى حيث أشار الرجل فألحظ في نحو ثلثه العلوي بقعاً سوداء تتحرك وتصعد ببطء وتتسلق ذلك الحائط الاصفر العظيم كأنها ذبابات صغيرة !

هل لا تريدين أن تصعدي أنت أيضاً ؟

وكيف أستطيع الصعود ؟

ليس هذا بالأمر الصعب فان كل حجر لا يزيد ارتفاعه عن المتر الا قليلا    أكثر من متر ؟

نحن هنا ثلاثة يا سيدتى اثنان منا يمسكانك بذراعيك ويجذبانك الى الأعلى بينما يدفعك الثالث من الخلف — وكان كل هذا فى نظره أمراً هيناً فأتعجل برفض هذه الدعوة فيقول لى الترجمان

ربما كنت تفضلين الدخول الى قلب الهرم — حقيقة أنه حالك الظلمة وحرارته خانقة ولكن ما دام الانسان قد دخله زاحفاً على يديه وركبتيه فانه يجد أن هذا العناء ليس شيئاً مذكوراً فى سبيل مشاهدته

أشكرك كثيراً فلن أدخله اليوم ولكن ربما حضرت غداً

وعند ذلك يبتسم الترجمان ويكرر كلمتى « غداً » ويلتفت الى رفاقه الذين كانوا يحيطون بى ويخبرهم بوعدى قائلا . غداً . بكره

فيقول الجميع ضاحكين أيوه . بكره بكره . وهم يبتسمون

ويحيونني وينصرفون متثاقلين في سيرهم ويتركونني أعود في طمأنينة

## ٨

# الصامتة الخالدة

أتقدم الى الامام فى الصحراء وأنا أرتعد فرقاً وجزعاً هنا لاشيء ولا أحد . وحدة مقدسة وسكون رهيب والهواء يتلألأ تحت الشمس العظيمة ويلمع كأنه مشبع بالصمغ

ولكن أين أبو الهول ؟ أين هو ؟ ولماذا لا أراه ؟

أبحث عنه بنظرى فى كل الجهات ولكنى لا أرى له أثراً

أنظر الى الأفق فلا أرى الا أولئك الجبابرة الثلاثة كيوبس وخفرع ومنقريوس الذين يخيل الى الناظر أنهم يتحدث بعضهم الى بعض عن الموت وعن الخلود . ولكنى أتجه بعد قليل الى ناحية الشرق . ها هو أبو الهول . ها هو

بنفسه. هو ذلك الموحش الغامض الرابض فى حفرة من الرمال والذى يمتزج لونه بلون ذلك الرمل الذى يحيط به والذى يتصاعد الى جوانبه حتى ليكاد يغطيه ويحجبه عن أعين الانسانية ويقيه شرها فأشعر بقلبي يدق دقات غريبة لا عهد له بمثلها وكأن قوة خفية تدفعنى فآخذ فى الجرى لكى أصل اليه . انه يقيم هناك من آلاف السنين وسيبقى حيث هو آلاف السنين ثم يخيل الى أنه يجب أن أجرى لاهثة مرتجفة لانظر اليه عن قرب وأمتع عيني برؤية ذلك الوجه البشع وذلك اللغز الأبدى الذى هو منبع آلاف القصص والموحى بآلاف الاساطير

وبينما أنا أعدو كذلك اذ يخطر ببالى ذلك المجنون هتشكنس الذى هام به لانه كان فى نظره المرأة الوحيدة التى لم يكن من السهل حل لغزها ومعرفة سرها فكان يهجر كل ليلة عروسه الشابة الحسناء كى يجىء الى هنا ويلقى بنفسه فى الرمل تحت أقدام هذه الخالدة الصامتة

وكان هذا شأنى أنا أيضاً فانى ارتميت أمامه فى الرمال وأنا أكاد ينقطع منى النفس من شدة الركض ولكنى لست

أدرى هل وقعت أم أردت السجود فركعت ؟

يا أبا الهول . ياذا الوجه العجيب المشوه . ويا أيها المخلوق الذى لا نفهم رموزه ولا نحل ألغازه انك تبذر فى روحى الطمأنينة والجزع فى وقت معاً وتملؤنى سلاماً ورهبة وشعوراً بغرور كل شىء وتأكيداً لفكرة الخلود وعقيدة الابدية !

لست أدرى كم من الزمن أبقى على هذه الحالة فان سحر أبى الهول يبقينى جامدة فى هذه العزلة العظيمة وهذا السكون الشامل الذى لا يسمع فى مداه الا حفيف النسيم على الرمال . وتميل الشمس بأشعتها منحدرة خلف هرم خفرع فأشعر فى لحظة كان الصحراء تلتهب التهاباً والسماء كلها ضرام وأبو الهول والاهرام والرمال كلها تتوهج وكأنها لبست جميعها حلة من الذهب

يسود السكون ولا يشبه سكون الصحراء سكون آخر لانه سكون تسمع فيه النفس همسات اللانهائية الخافتة

ولم تكن الا هنيهة حتى تتبدل كل هذه المناظر وينطفىء ذلك الحريق . والذهب يضعف بريقه والنهار والليل يتلاحقان

ويمتزج بنفسج الليل بزعفران النهار وتنتشر فى هذا الفضاء رائحة طيبة ويختلط لغز الشفق بلغز أبى الهول ثم يزول هذا الجمال ويأتى الليل فجأة فأطفر مرتعدة وتعترينى هزة غريبة

ويلاه! لقد نسينى العرب وانسلوا صامتين الى أكواخهم عند نزول الظلام. وأنا وحيدة هنا فى هـذه المقبرة الكالحة الغبراء التى لا يعرف لها حد ولا نهاية فيأخذ الرعب بمجامع قلبى فأقف جامدة ثم أنطلق أجرى فوق الرمال فتغطس قدماى وأتعثر بعد كل خطوة فلا ازداد الا رغبـة فى الهروب من الاشباح التى تلقيهـا الاهرام فى طريقى فاجرى لاهثة نحو ضوء الشارع وزهو مدينة القاهرة الحية .

٩

## زيارتى لزغلول باشا

ما أحسن تحية المصريين وما أحلاها !!

« أهلا وسـهلا انك متى دخلت عتبتى دخل لى معك النور والسعادة فى بيتى »

وانى لاتمنى من صميم فؤادى أن يكون ذلك صحيحاً وأود لو أن كل مرة أدخل عتبة صديق يدخلها النور والسعادة معى

فى ذلك الصباح كنت أدخل فى بيت زغلول باشا الكائن فى شارع « سعد زغلول باشا » وفى الساعة العاشرة تماما كنت أصعد على السلم الرخامى الواسع فلما مررت فى الحديقة الصغيرة المنبسطة بين سلم الدار وسلم السلاملك كان أربعة أو خمسة من الخدم جالسين بملابسهم البيضاء الناصعة فلما رأونى مقبلة وقفوا وحيونى أجمل تحية ولما وصلت الى رأس السلم انفتح الباب أمامى بسرعة حيث كان مجيئ مرتقبا واذا بخادم يسير أمامى فى صمت فأتبعه مجتازة قاعة الانتظار الى بهو واسع كثير الأشراق مفروش على الطراز الاوروبى الحديث فآخذ مقعداً فى احدى الزوايا وما هى الا لحظات قليلة حتى ظهر خادم آخر عظيم الجسم بهى الطلعة نظيف الملبس يحمل فى وعاء مذهب فنجانا فاخراً من القهوة التركية اللذيذة الذكية الرائحة ويقدمه الى ثم يتراجع نحو الباب حيث يبقى واقفاً بلا حركة كانه تمثال من برنز حتى أنتهى من تناوله .وبعد ذلك يدعونى

للدخول الى مكتب دولة الباشا فيستقبلنى زغلول باشا واقفاً وراء منضدته وعلى رأسه ذلك الطربوش الأحمر الذى يضعه المصريون على رءوسهم علامة الوقار والاحترام ولا يرفعونه لا للتحية ولا فى منازلهم فيبدو لى الزعيم المصرى كما كنت أعرفه من قبل تماما فى باريس منذ خمس سنوات مضت فلا العظمة ولا الاضطهاد ولا سلطان الحكم ولا النفى ولا السجن ولا الهتاف باسمه ولا الدس عليه ولا شىء مما جرى له فى هذه السنوات الخمس استطاع أن يحدث أقل تغيير فى ذلك الوجه العبوس المائل الى السمرة أو يقلل من عظمة تلك القامة الطويلة النحيلة أو أن يضعف نور هاتين العينين القاسيتين الغارقتين تحت جبينه واللتين يشعر الناظر اليه بنظراتهما تخترقان صميم أحشائه وتبحثان فى طيات نفسه واعماق فؤاده

ولقد حيانى تحية شعرية هادئة نطق بها دون ابتسام بصوت كأنه ينبعث من بعيد فتحركت لها نفسى وأثرت فى تأثيراً كبيراً فأردت اذ ذلك أن أعبر له بكل قوتى عن عظيم اخلاصى وأن أعرب له عن اعجابى وأبثه كل آلامى وأسفى

لذلك الحظ القاسي الذي أصابه وأصاب وطنه فلم استطع وكأنه
فهم ذلك مني وعرف ما يجيش في صدري ويدور في خاطري
فرد على سكوتي هذا بابتسامة مشرقة نادرة تهللت على وجهه
المتألم الذي هجره الابتسام منذ خطت يد الدهر عليه خطوطا
عميقة فتركت فيه الحوادث غضونا وثنايا وكانت الى جانبه
سيدة رقيقة يقطر وجهها لطفا وحنانا شديدة البياض لها عينان
سوداوان نجلاوان وكان يخيل لمن رآها أنها للزعيم العظيم
الاخت البارة المخلصة والملاك الحارس في وقت واحد وكانت
تلك حرم زغلول باشا التي حيتني هي الاخرى أجمل تحية
وسلمت على باشة مبتسمة ودار الحديث بيننا بالفرنسية التي
هي لغة الاجانب الرسمية لان الانجليزية لا يريد أن يتكلم بها
أحد فقلت له انني أحمل اليك يا دولة الباشا تحية الاصدقاء
البعيدين واذكرهم له جميعاً فيشكرني ويخص كتاب ايطاليا
وصحفييها الذين أحاطوه بعطفهم الشديد واظهروا رعايتهم
نحوه ونحو قضية بلاده — وأخذت أنا أيضاً بدوري اسأل
عن الاصدقاء المصريين الذين كنت قد عرفتهم معه واسأل

قبل الجميع عن الدكتور عفيفى بك الذى كان من زغلول باشا بمثابة أمين الاسرار والذى صار فيما بعد أحد خصومه

فأجابنى بكل بساطة قائلا : لقد تركنى وان كثيرين غيره ممن كانوا معى فى أيام الصفاء قد أداروا لى اليوم أكتافهم .

ولقد كان ذلك صحيحاً فاننى قد تحققت بنفسى هذا الامر عند مقابلتى للسيدة شعراوى فى اليوم السابق فى منزلها وهى سيدة مصرية ذات ثروة طائلة تهتم بالشئون النسوية المصرية ومعروفة هنا فى ايطاليا وقد كانت من أعظم نصيرات زغلول باشا وأخلص أعوانه وفى مقدمة المعجبات به فاننى عند ما دخلت فى ذلك الوسط النسائى البحت الارستقراطى الذى يتكلم فى السياسة والآداب العامة شهدت والدهشة آخذة منى كل مأخذ انفجار براكين الاحقاد الجنونية الطائشة على الزعيم الوطنى وسمعت من الاقوال ما لا ينطبق على منطق ولا يسلم به عقل سليم

لها الله ! كيف يكون ذلك ؟ ذلك البطل الطاهر النقى الصفحة الذى وهب وطنه كل شىء وضحى بثروته ولم يبخل

بحريته وراحته وصحته فى سبيل بلاده . ذلك الرجل المتقدم فى السن الذى تحمل آلام السجن والنفى وعذاب الابعاد باسما وعرض حياته لرصاص المجرمين دون اهتمام يكون موضع كل هذه الكراهية وكل هذه الاحقاد وأهلا لمثل هذا النقد؟ فلم يكن فى امكانى أن أصدق ما سمعت أو أن أدرك هذا السر

ولكن النساء فظيعات قاسيات فهن لا يغتفرن لهذا الوطنى العظيم والسياسى المحنك الكبير عدم نجاحه حتى ولو كان فشله نتيجة لازمة لما نصب له من المؤامرات الدنيئة والخيانات التى كان يستحيل تجنبها أو التنبؤ بها وكشف أسرارها قبل وقوعها

كل هذا أردت أن أقوله لزغلول باشا وأن أعرب له عن مزيد احتقارى لما سمعت ولكن نظرة الحب القلبى التى كانت تشمله بها زوجته الكريمة أذكرتنى أننى فى حضرة رجل مريض وأنه قد يكون من الواجب أن ألطف آلامه وأضمد جراحه بدلا من اثارتها فملت بالحديث معه الى ناحية أخرى وأخذت فى الحال أحدثه عن اعتزامى السفر الى مصر

العليا . فقال وهل أنت مسافرة قريباً ؟

فقلت له انى مسافرة فى الحال ياصاحب الدولة

فقال لقد كنت دائماً صديقة هذه البلاد وقد منحتها محبتك قبل أن تعرفيها وها أنت اليوم تذهبين الى حيث تنظرين بلدى وقومى — واستمر يقول وهو ينظر الى مفكراً — وانى أود أن تنكشف لك نفسية هؤلاء الفلاحين المساكين فتلك نفسية نبيلة شريفة ولكنها مجهولة

لو سمحت يا صاحب الدولة حملت اليهم تحيتك

فابتسم موافقاً ثم لم يلبث أن قطب جبينه كأن فكرة مؤلمة قد تملكت خاطره وقال لى : وهل ستواصلين سيرك الى السودان ؟

انى لا أدرى بعد أأواصل السفر اليه أم لا

فأطرق ملياً ثم أبرقت عيناه وقال : وكيف يمكن التصديق بأن مصر ستتخلى عن السودان ؟ انه لما نجحت القوة الغاشمة فى اخراجنا من جزء منه أسرعنا وافتتحناه ثانياً وضحينا فى سبيل ذلك بتضحيات لا حصر لها فبذلنا كثيراً

من المهج والملايين فهل يجب أن نتنازل عنه الآن ؟ وكيف يمكن أن نتنازل عن النيل الذى عليه تتوقف حياتنا نفسها وفى هذه اللحظة كان قد امتقع لون وجهه واستمر قائلا : ان اليوم الذى يجب علينا أن نتركه أو نتخلى عن جزء منه لغيرنا لهو اليوم الذى تصبح فيه مصر أمة ميتة ! !

أوجدت كلماته هـذه انقباضاً فى قلبي وأثرت فى نفسى أيما تأثير وكنت قد علمت فى نفس ذلك الصباح أن اللورد مستون الذى كان رفيقى فى سفرى من ايطاليا الى مصر عند ما عبرت البحر الابيض المتوسط ركب القطـار رأساً الى السودان لقضاء مهمـة لجماعة من الماليين الانجليز وقد وفق فى وضع أساس لاتفاق مع الاحباش يضمن لانجلترا السيطرة التامة على النيل من منابعه الى مصبه

كنت أريد أن أفضى بذلك أيضاً لزغلول باشا ولكنى لم أجرؤ فان شحوب ذلك الوجه المعذب ظهر أثره على شفتيه فأخذا على سبيل الـكلام وكان فى ذلك الوقت قد دق الجرس الخارجى عدة مرات وأكثر الخدم من الدخول يحملون الى

الزعيم من آن لآخر بطاقات من أشخاص كانوا يسألون أو ينتظرون أن يسمح لهم بالدخول لزيارة الرئيس الجليل ولكن كانت حرم زغلول باشا تجيب فى كل مرة بأن دولة الباشا تعب وليس فى استطاعته مقابلة أحد

حاولت أنا أيضاً الانصراف أكثر من مرة ولكنه كان يأبى على ذلك كل الاباء ويستبقينى ولا أعرف بل وليس فى استطاعتى ولا أنا أريد أن أعيد هنا كل ما دار بيننا من الاحاديث فى ذلك اليوم وها أنذا أسائل نفسى هل أكون قد تمكنت من ايجاد بعض الكلمات التى أوجدت عزاء لقلبيهما المعذبين . اننى لا أدرى ولكن كل ما أذكر أننى عند ما أذن لى بالانصراف كنت أرى سواد عينى حرم الزعيم الرقيقة يلمع من البكاء كما كان دولة سعد باشا زغلول يضغط على يدى بشدة وهو يقول :

ارجعى الينا ولا تجعلى هذه الزيارة آخر زياراتك وعدينا بأنك ستعودين . وخرجت من حضرة هذا الزعيم وأنا مشردة النفس أفكر فيما كان يريده رجل مصر العظيم

لبلاده وفى كل ماحاوله والذى هدمه خصومه دون مبالاة
وبينما أنا لا أزال واقفة فى الدهليز انتظر عودة الخادم الذى
ذهب لاحضار عربتى من بين السيارات والعربات الكثيرة
المنتظرة سمعت ساعة كبيرة تدق دقات كنائسية فأحصيت
دقاتها على غير قصد

اثنى عشر ؟ مستحيل هذا ولا يمكن أن يكون النهار
قد انتصف وأنا مازلت فى هذه الدار فرفعت عينى الى حيث
ساعة الحائط فاذا بعقاربها تشير الى أنها لا تزال الحادية عشرة
فسألت نفسى قائلة :

ترى هل ساعة زغلول تفترس الدهر . وهل هى تسبق
الحوادث ؟ ؟ . . . وتفاءلت خيراً وفكرت فى أن الزمن
القاسى ينقضى وساعة الفرج تقترب ! !

١٠

## تأثير اسم

أبحرت فى نفس تلك الليلة بطريق النيل وقبلتى مدينة

الاتصر الشهيرة بحدائقها الغناء اليانعة ووردها الجميل وطيبة ذات المائة باب وكوم امبو مدينـة المعابد الجميلة وفيلى تلك اللؤلؤة العظيمة الغارقة فى الميـاه الزرقاء المنبسطة ثم سيلين أو أسوان القديمة وكنت أحمل تحية سعد باشا زغلول فى كل مكان حللت ولجميع من رأيت فكان اسمه طلسما يفتح أمامى جميع الابواب وكل القلوب

ولكن كيف ذلك ؟ أحقا تعرفين سعد زغلول ؟ اذن فادخلى بيننا وكونى مباركة ! !

هل رأيتــه وهل حدثتــه ؟ سلمك الله وحماك من كل سوء ! !

هـذا ما كنت أسمعه ممن كنت أقول لهم أن زعيمهم حملنى اليهم سلامه وتحياته وقد كنت اخترت محمد يحيى ترجمان االورد كتشنر على أن يكون دليلى فى هذه الرحلة وقلت له أتعرف يا محمد أننى صديقة سعد زغلول باشا ؟ فقـال ماذا تقولين يا سيدتى ؟ أأنت صديقة سعد زغلول ؟ فقلت له نعم فأشرق وجهه وأبرقت عينـاه وانحنى يقبل أطراف ثوبى

ويقول: لقد فهمت الآن السر فى رقة أخلاقك وطيبة قلبك

أما الغلام الاسود الذى كان يركض الى جانب حصانى وهو يمسك بين أسنانه بطرف ردائه الممزق المتهدل فيقف فجأة ويقول: سعد باشا ؟ بالله هل تعرفينه وهل لمست يده ؟ اذن فليحفظك الله من كل شر وليكن معك نور السماء

وكان يجي من هذه اللحظة يسبقنى كلما وصلنا الى بلد مهرولا ويقول لكل من يراه « هذه صديقة سعد باشا » باللغة العربية وكان يردد هذه العبارة فى الطرق والدكاكين والمخازن ولكل انسان حتى لرجال الشرطة والحراس الوطنيين فسرعان ما كانت تشرق حولى ابتساماتهم وتحمساتهم وصيحات اعجابهم وترتفع أيديهم بالسلام على ولما وصلنا الى سوق أسوان كان كل أصحاب الحوانيت المفتوحة المشرقة وموظفوها يخرجون للقائى وتحيتى ويأخذوننى من ذراعى كل الى متجره

أأنت صديقة سعد باشا ؟ ادخلى ادخلى . أهلا وسهلا !

وكانوا يحيطون بى ويتكاثرون ويدفع بعضهم بعضا

نحوى ويسألونني قائلين متى ستنظرينه ؟ أرجو أن تحملى اليه تحيتى وتبلغيه سلامى . . .

ها هو اسمى . ها هى بطاقتى . . .

فما هى الا هنيهة حتى امتلأت يدى ببطاقات وأوراق كان أولئك الناس يكتبون أسماءهم عليها لأحملها الى زعيمهم وبعد ذلك يتقدم نحوى تاجر اسمه حنفى بك ويخلع على عنقى عقداً من القهرمان ويلبسه لى . أريد أن أدفع له ثمنه ولكنه لا يلتفت الى ويبدو التأثر على وجهه ويرفض أخذ ثمنه رفضا باتا لانه كان هدية منه لصديقه سعد زغلول ! وعند ذلك يقتفى أثره تجار آخرون يجرون الى من المخازن المجاورة هذا يتقدم الى بصف من المرجان والآخر بسوار وهذا بتميمة وذاك بجعران . .

وها هى كل هذه الاشياء الجميلة أمامى بينما أكتب هذا وانى كلما تذكرت انى لم أحصل عليها الا باسم زغلول باشا الذى يسحر الالباب شعرت بعطف عظيم على هذه الأمة الكريمة المسكينة

نحن الآن فى مدخل خزان أسوان الذى هو أفخم خزانات العالم وأكبرها وبرفقتى الكونت لويجى دى ڤالمارانا فنرتقى عربة «ترولى» صغيرة ذات مقعدين لنعبر هذه القنطرة الجرانيتية الهائلة التى القاها الانجليز فوق النيل ويدفع هذه العربة باليد وطنيون حفاة الاقدام فتجرى بسرعة غريبة ولكنها سرعان ما تبطئ وتقف واذا بالنوبيين الذين يدفعونها يتشاورون فيما بينهم ثم يخاطبوننى بكلمات لا أفهمها ويشيرون بأصابعهم الى الامام فأنظر حيث يشيرون فأتبين جيشا لجباً من الجنود فى بذلاتهم الرسمية التى من نوع الخاكى تنتشر طلائعه بسرعة وتتدافع فى عرض الخزان كما لو كانوا يريدون أن يحولوا دون مسيرنا أو يأخذوا الطريق علينا فينحنى يحيي الواقف خلفنا ويقول هامسا فى أذنى : لن يمكننا التقدم ولا مواصلة السير فارجعى بنا

فأقول له ولماذا لا نتقدم ؟

لان هؤلاء — ويشير الى بقعة خاكية صفراء فى الشمس يتخللها بريق السلاح. هم الجنود المصريون المبعدون

من السودان على أثر الانذار البريطاني الاخير وتبدو على وجوههم علائم الشر وهم ناقمون على كل شيء وعلى كل انسان وأصبحوا شرسي الطباع ولا يريدون أن يروا أجنبيا أيا كان لان رؤية الاجانب تهز أعصابهم وتلهب رؤوسهم وتثير كامن غضبهم

وحقيقة لاحظنا أن هذه الكتلة البشرية الصفراء تتقدم نحونا ببطء. واذا هم رجال أقوياء كأن جسومهم قدت من الجلمود وكلهم عابس الوجه مقطب الجبين تقدح عيونهم شررا ويمشون منتفخي الصدور مرتفعي الرؤوس ومسلحون حتى أسنانهم بكامل آلات القتال ومعدات النزال فيلتفت الكونت دي ڤالمارانا الى ويقول :

يظهر حقيقة أن منظرهم لا يدعو الى الارتياح والطمأنينة

وأما يحيي فقد أصر على أن نرجع على أعقابنا قائلا : عودي بنا يا سيدتي فانهم عصاة خطرون صدرت لهم الاوامر بتسليم أسلحتهم ولكنهم لم يطيعوها . ولكني أهز كتفي وأقول : بل سيروا الى الامام ولنتقدم فما في ذلك من بأس

لاننا ايطاليون ولسنا انجليزا ولذلك فهم لا يكرهوننا ولا يضمرون لنا شرا ولاداعى لان نخشاهم لاننا لم نفعل مايستوجب الخوف منهم فيقول الكونت : الى الامام !

فيأخذ النوبيون الذين تعودوا الطاعة فى دفع العربة متثاقلين بينما يتكلمون مع بعضهم ويغمغمون بصوت منخفض

ها هى صفوف الجنود الاولى تقترب منا وتصير على بعد بضعة أمتار من طلائعهم فيقول يحيى من خلفنا: حقاً اننا نقامر بحياتنا وانهم اذا فتكوا بى وبالكونت فالحكومة تلقى عليه المسئولية وهو رجل ترجمان مسكين . ويقول الكونت قد يكون على حق وربما نكون قد ارتكبنا حماقة بمواصلة السير. وفى الواقع كان الجنود الذين كان يجب أن نمر فى وسطهم ينظرون الينا نظرة مظلمة شديدة فيكادون يفترسوننا باعينهم ويقول الكونت : كفى . وانى افضل أن نرجع الى الوراء فذلك خير وأبقى .

الرجوع الى الوراء؟ وأمام كل تلك العيون المحلقة فينا وهل ندير اكتافنا الى هؤلاء الرجال الغضاب ؟ انى أقول لكم

بكل صراحة انه ليست عندي الشجاعة الكافية لذلك وان خير وسيلة لاتقاء الشر هي التذرع بالصبر والشجاعة لمواجهته .

وكما لم يعد الرجوع ممكنا فكذلك اصبح التقدم مستحيلا ولبثنا فى مكاننا ننظر الى تلك العيون التي تتقد فيها نار اليأس . واخذ الجنود يسيرون فى طريقنا ببطء وفى صمت فيسدون طريقنا ويمنعون خطواتنا ويتقدم الجنود المتأخرون وينضمون الى الطليعة منتشرين يمينـا وشمالا فيقفز يحيي الى الارض ويستحيل وجهه الاسمر الى لون اغبر فأقول له أليس بين هؤلاء الجنود ضابط ؟ . وآمره بأن يشير لى الى ضابط من ضباطهم فيومئ بعينه كأن يده قد فقدت الحركة الى ضابط يتكئ على سور الجسر وهو شاب ربعة القامة أقل طولا من بقية الجنود ولون بشرته أفتح منهم .

نزل أيضاً الكونت دى فالمارانا ومد الى يده فنزلت ونمر فى صمت كل هؤلاء الجنود وسكونهم المخيف حتى نقترب من الضابط ولكن هـذا ينظر الينا بهدوء دون أن يتحرك فأسأله قائلة :

هل تتكلم الفرنسية ياحضرة الضابط ؟

فيبدى حركة الموافقة بإيماءة برأسه فاقول له بلهجة جدية انى اتشرف ياحضرة الضابط بان اكون من معارف حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا واكون سعيدة جداً لو عرف ذلك جنودك .

فكان لهذا الكلام فعل كفعل السحر اذ أشرق وجه الضابط وتهلل بعد أن كان عابسا واستقام فى وقفته واعتدل وارتفعت يده بسرعة الى جبينه بالتحية المصرية والتفت الى الجنود الذين كانوا على مقربة منه وتفوه لهم ببعض كلمات سرت فيهم سريان الكهرباء وانتشرت بسرعة البرق كأن أمراً عسكريا من رئيس عظيم طرق آذان الجميع فيسمع لهم ضجيج ويضطرب ذلك الموج الخاكى ثم لا يلبثون أن يفتحوا لى طريقا فى وسطهم ويتفرق ذلك الجمع المخيف ويجرى اسم سعد باشا من شفة الى شفة فتشرق تلك الوجوه العابسة بالابتسام ويرافقنا الضابط حتى عربة « الترولى » وعند ما نصل اليها ينحنى ويحيينى بقوله « سعيدة يا ست » فارد تحيته

بقولى « سعيدة » وانا احاول أن أقولها بالعربية وألوح بيدى لرجاله وعند ذلك يرتفع من جمهور العصاة زئير شديد وهتاف يصم الآذان بنداء « ليحى سعد زغلول — يعيش سعد زغلول »

فيقف الكونت دى ڤالمارانا ويرفع قبعته ويحنى رأسه احتراماً لهذا النداء ويعاود « الترولى » مسيره بين جناحين من الجنود وهم يواصلون هتافهم

* * *

وصفت هذا المشهد العظيم لدولة زغلول باشا عند ما عدت الى القاهرة وذهبت لزيارته فى بيته وكانت ساعة غروب بعد أن خفت صوت المؤذن الذى يدعو المؤمنين من أعلى المآذن للصلاة وكان زغلول باشا وحده فى مكتبه فطفق يسمع كلامى وهو مطرق لا يتكلم ولا يبدى حركة وملق بجبينه فوق كفه الأيمن ولم يقاطعنى بكلمة واحدة حتى اذا ما سكتُّ رفع رأسه نحوى وكان التأثر باديا على وجهه وفى عينيه وقال لى وهو يبتسم ابتسامة مرة :

« وهل يمكن اخماد كل هذا ؟ وهل بعد هذا يمكنهم القضاء

على النهضة المصرية فقلت له لا أبداً ولن يكون ذلك فى مقدورهم مهما عملوا

ولما استأذنت دولة الزعيم العظيم فى الانصراف امسك يدى برهة وقال : استودعك الله ومتى ذهبت الى ايطاليا فاذكرى أن قلبي معك ! !

## ١١

## جزيرة فيلى

أنا الآن فى أسوان مدينة الشلالات

وصلت اليها منذ ساعة ولا تزال عيناى زائغتين لانى حدقت طويلا من وراء زجاج القطار الازرق السميك فى مرآة الصحراء المقفرة المهجورة

اخرج الى شرفتى واعتمد على سورها وأمامى منظر بديع قد لا يكون له مثيل فى العالم كله اذ تنحدر مياه النيل من الشلال الأول أنصع بياضا من الزبد وتتكسر على أبواب

الخزان المائة والثمانين فيسمع لها صوت كأنه زئير الأسود. وهناك تنداح وتنبسط فى ساحة من الفضة الذائبة وتبرز من المياه الف جزيرة ذات صخور قائمة لامعة كأنهـا الياقوت وأرى أمامى فى وسط النهر جزيرة فيلى التى يرتفع ظهرها الجرانيتى المقدس وتعلو قمتها النخيل

ويمتد بعيـداً الى جهة الغرب بساط الصحراء الاصفر الذى لا تبلغ العين آخره فتغمره سيول الشمس الشقراء

هذه هى اسوان . هذه سيلين القديمة . هنا يأتى المصدورون طلبا للشفاء والى هنا يجب أن يأتى المحزونون بغية السرور والانشراح حيث الاقامة فى أرض بديعة ساحرة هى المثل الأعلى للجمال

انى ابحث عن تعبير اصف به هـذا المكان فيعيينى البحث . هنا تستولى الدهشة على النفس فتخلد الى السكينة . هنا يجد الايمان الحق طريقه الى السماء .

الله . الله . دعاء يردده العرب فى كل آن فيتردد صداه على شفاهنا التى طال عهدها بالتسبيح بينما يصلى ابناء الصحراء

مولين وجوههم شطر مكة وهم راكعون على الرمال يذكرون الله ويسألونه الغوث والمعونة

وبينما أنا مشرفة على النيل أرى مياهه تغمر جانبا من شاطئ الحديقة وأجد قاربا ظريفا منتظرا فى خليج صغير فآخذ وشاحى ومعطفى وأنحدر الى دهليز الفندق حيث تصدح موسيقى الساعة الخامسة بعد الظهر فتطرد عن العيون نعاس الهجير الحار فأقابل فى طريقى الكونت لويجى دى ڤالمارانا رفيق رحلاتى الماضية فيدعونى لتناول الشاى

لا . لا وخير لنا أن نأخذ قاربا نذهب به الى جزيرة فيلى . . فيصيح الكونت قائلا : أفى هذه الساعة نذهب الى فيلى ؟ ثم يستغرق فى تأمل وتفكير عميق ولكنه يخشى عاقبة نشاطى الذى لا يهدأ ولا يستريح فيقول : اننا لم نكد نستريح من سفرنا الذى استغرق سبع ساعات بطريق السكة الحديدية فقلت له بنغمة غنائية : ولكن ألا تنظر النيل ؟ أنظر الى تلك الصخور التى تتراءى كأنها وحوش رابضة تحت أقدام « أختنوم » آله الشلالات وفكر أنه فى جزيرة فيلى

كان يسافر ملوك الاسرة الخامسة الذين . . . . . . فيخاف الكونت معلوماتى هذه غير العادية ويقطع علىّ الحديث قائلا : لنذهب ولكن يجب قبل كل شيء أن نعبر الدهليز لكى نستشير ذلك البواب الذى يعرف كل شيء . ونستعلم منه عن أجرة القارب . ولكن هذا السويسرى الحازم يخبرنا هو أيضا أن الوقت قد أزف ويقول : لقد اقترب الغروب وفى هذه الجهات يدخل الليل بسرعة

الغروب ؟ وهل نرى الغروب من اطلال مينوفيس ؟ انه لا بد وأن يكون أعجوبة — فننزل الى الشاطئ ونجد البحار النوبى بردائه الابيض وحزامه الاحمر يمد الينا يده المظلمة الناحلة ويأخذ بيدنا الى قاربه الخفيف

وما هى الا دفعة واحدة أو دفعتين حتى ينحدر القارب فوق المياه اللامعة البراقة وبينما يشتغل النوتى بتعديل شراعه اللاتينى ينظر اليه الكونت ويقول : ما أجمل هذا الوحش ! ولكنه طلسم عسر الفهم وربما كان الاوروبيون على حق . أنظرى أى خوف يجده الانسان اذ يكون تحت رحمة هؤلاء .

السود الهائلين — ثم يستمر على هذه النغمة مدة من الزمن واذا هو كذلك يفتح النوتى تجويف فمه ويقول :

انها لليلة جميلة . أليس كذلك يا سعادة الكونت ؟

يقول ذلك بلهجة نابوليه فأنظر الى الكونت والكونت ينظر الى ونحن مبهوتان . هل هذا الوحش يتكلم الايطالية ؟ اذن لا بد وأن يكون قد سمع كل حديثنا وفهم كل ما قلناه عنه — ثم يشرح لنا النوتى وهو يبتسم ابتسامة عذبة كيف كان من مدة ثلاث سنوات يشتغل مع العمال الايطاليين المعينين فى أشغال الخزان فيسأله الكونت عن اسمه فيقول ان اسمه « جمعه محمد » ولكن النابوليين كانوا يدعونه بالاشقر ثم تضيء ابتسامته الطفلية البريئة ذلك الوجه الاسود فيصير كأنه قطعة من الاسفيداج

أما أنا فانه لم يعد فى نظرى بعد هذه اللحظة ذلك الوحش بل مخلوق بشرى رقيق طيب القلب

وكان القارب ينساب بنا كأنه الافعى بين الجزر الصغيرة ولكن سرعان ما تسقط الشمس نحو الشفق فتلتهب السماء

ويتغير المـاء ويتحول لونه من سائل فضى الى ذهب مذاب فيمسك جمعة بمجاديفه ويقول يجب ان نسرع . وفى الواقع كانت الشمس قد انحدرت كأنها كرة نارية كبيرة خلف حائط الجبل الصحراوى وأخذت السماء تحترق حتى لقد خيل الينا اننا نسير فى بحر من الدماء

ولكن ها نحن أولاء أمام الجزيرة التى يشرف جانبهـا الأسود الشاهق على المياه كأنه فيل عظيم ينام مطأطئ الرأس مطرقا لضجيج الشلال المستمر

يسبقنا جمعة ويصعد على الرابية العالية ويشير لنا الى قريتين نوبيتين متماسكتين على منتصف ارتفاع الجانب الغربى من الجزيرة ثم يتقدمنـا الى حديقة دار الآثار بين النخيل وحدائق الورد والبساتين اليانعة

ولما كنت لا أحب الحدائق ولا أميل الى دور الآثار فانى أتوجه مسرعة نحو اطلال المعبد السنجابية فوق قمة هذا الطنف فانظر حولى وأقول : ترى أمعبد هذا أم مقبرة ؟ انى لا أدرى ! هنا الهدوء وهنا السكينة ! !

ولم تكن الا هنيهة حتى انصرف الغروب واختنق السماء بضوء لبنى بارد وانفرجت الى جهة الغرب مروحة خضراء وردية هى مرآة القمر الجديد ! !

## ١٢

# نبوءة فى الرمل

وعلى حين بغتة لمحت شبحا غريبا ملتفا باجواخ سوداء رابضا بين الاطلال فطفرت من مكانى مرتاعة . انه عربى يتقدم نحوى زاحفا عند ما يرانى ويقترب منى رافعا يده الى جبينه ثم يضعها على قلبه ويقول :

سيدتى . سيدتى — يقول ذلك فى لهجة مؤثرة هى خليط بين الايطالية والعربية — أريد أن أحدثك عن حظك . إن حظك طيب يا سيدتى اسمحى بان أراه لك فى الرمل

فأتحول عنه واتركه ولكنه يسرع ويكوم تحت اقدامى هرما صغيراً من الرمل والحصى ثم يخط مسرعا بسبابته

ويرسم علامات رمزية غريبة من دوائر ولوالب ومنحنيات ويقول : انى أرى حظك يا سيدتى انك تحضرين من بلاد نائيـة بعيدة وتسافرين الى بلاد نائيـة بعيدة وانى لأعرف الفكرة التى تحملينها بين جنبيك — فأقف مندهشة وأسمع ألفاظه المنمقة وعباراته الغامضة فيخيل الى أنها ملآنة بمعنى غريب

ثم يمد يده الى ويقول اعطينى أى شيء من حاجياتك أريد شيئاً صغيراً ولو لم تكن له قيمة على أنى سأرده اليك ثانية فأخلع من رقبتى تميمة صغيرة فيأخذها من يدى ويخفيها فى الرمال ثم يستمر فى رسم منحنياته ودوائره فوقها ويقول

هأنذا أرى روحك الآن وأرى أمسك كما أرى غدك فمن أى هذه الثلاثة تريدين أن أحدثك ؟

فأقول له دون تردد : أريد معرفة الغد فقال اذن فاسمعى :

انك فى غد سترين الشمس مشرقة

سأرى الشمس مشرقة ؟ وما معنى هذا ؟ هل تريد أن

تقول انى سأكون سعيدة ؟ !

ان سعادتك ستكون على قدر حكمتك

ولكن عبارته هذه لا تحسنى فيستمر قائلا : وحيث أنى أرى روحك فيمكننى أن أقول لك انك راجحة العقل وستحصلين دائما على كل ما تشتهين لانك لا تشتهين الا ما فى يدك وما تملكينه — وستجدين دائما كل ما تبحثين عنه لأنك لن تبحثى الا على ما وجدته وما هو فى متناول يدك . وان اعداءك . . . . . . فأقطع حديثه ضاحكة بقولى

أعدائى ؟ انى ليس لى أعداء يا هذا . ولكنه يقول : ان أعداءك ذئاب ولكنك تحسبينهم خرافا فتقدمين لهم العشب ليأكلوا . يأكلون العشب وينسون أن ينهشوا يدك . حقيقة انك عاقلة حكيمة ! !

هل تريدين أن أقول لك أى الايام هو أعزها عليك وأيها سيكون دائما أجمل أيامك وأسعدها ، فأقول له نعم .

ان أسعد أيامك هو اليوم الذى فى غد سيكون أمس !

ولكن هذا الجواب الكهنوتى يحيرنى ويختلط على

ترى أى يوم يمكن أن يكون هذا اليوم الذى فى الغد سيكون أمس ؟؟

وبينما أنا أحاول أن أحل هذا اللغز اذا هو يستمر قائلا والآن هل تريدين أن تعرفى فى أى يوم تموتين ! ان فى استطاعتى أن أخبرك به ولكنى أقول له بحدة . لا . لا . فيخفض من صوته وينبئنى بمدة حياتى وبنهايتها البعيدة . يخيفنى هذا التاريخ لانه لا يجب أن نعين حداً للحياة مهما طالت فاضطربت وتأثرت وحسبت كل ما قاله حقا وخيل الى أننى أسمع فى هذا المكان الخالى وهذا السكون العظيم نبؤة مقدسة فأسترد تميمتى مرتعدة وأصب له فى يده الطويله القاتمة كل ما كان معى من نقود فضية فينحنى ليلمس طرف ثوبى علامة الشكر والامتنان ثم يقف على قدميه ويقول بحركة جدية وقورة

اذهبى . اذهبى فى الصحراء كما تشائين دون خوف ولا وجل فسيكون الله معك لان النخلة التى زرعتها فى فناء الفقير ستظلك بظلالها من لفح الهجير وستذوقين حلاوة ثمرها اذا

ما جن الظلام

يقول هذه العبارة ثم يتوارى بين المنحدرات كأنه الظل وكان فى ذلك الوقت قد اختفى الشفق الذى يسقط فى البلاد الحارة رأسياً مرة واحدة خلف غروب الشمس وكذلك كانت قد تبددت فى الظلام جبال النوبة البعيدة وأصبحت كأنها شراع غبراء كما تتبدد أيضا وديان الصحراء ورواييها ولكن لا يزال النيل وحده منبسطا لامعا بأصدافه القرمزية الرقيقة

أرى شبحى الكونت وجمعة يلوحان عن بعد وهما قادمان نحوى بسرعة ويصل الى الكونت فالمارانا جاريا . ويقول أين كنت ؟ لقد خيم الظلام ويجب أن نعود أدراجنا . فنأخذ فى النزول ولكن جمعة يوقفنا فى منتصف الطريق ويقول : أنظرى . هنالك مقياس النيل ويشير الى سلم ضيق ينزل عموديا بين الصخور

فأقول . مقياس النيل ؟ هل هو ذلك العمل العظيم الذى أعاده اسماعيل بعد أن ظل متروكا أكثر من ألف سنة والذى لا يزال الى اليوم يبين ارتفاع مسطح المياه وانخفاضه

مشيرا الى الشعب المصرى بالزيادة والنقصان ؟ يجب اذن أن نرى مقياس النيل !

يأخذنى جمعة من ذراعى وينبه على الكونت بالاحتراس لئلا تنزلق قدمه على السلم الصخرى وينزل بى الى كهف مربع بعيد الغور حالك الظلمة يظهر كأن بأسفله نورا خفيفا والكونت من ورائنا يحاول أن يستوضح من الجدران تلك المخطوطات اليونانية التى تبين مستوى المياه فى العهد الامبراطورى والفرنسى والعربى الأخير ولكن الظلام يحول بينه وبين ما يبتغيه

انتهى السلم وأريد أن أضع قدمى على الارض اللامعة السوداء فتوقفنى صرخة من جمعة ويشد ذراعى لان ذلك المربع اللامع أمامنا لم يكن غير ماء النيل العميق هو بئر المقياس فارتجف وأرجع القهقرى وعندما نصعد من السلم يتقدمنا الكونت دى فالمارانا ويعتمد بيديه على الحائط فيصرخ جمعة صرخة هائلة ثانية تجعلنا نطفر من مكاننا وتنخلع قلوبنا رعبا وهلعا .

ابعدوا الأيدى! العقارب العقارب ! انها لكثيرة جدا في الصخور عقارب مميتة قتالة :

فنسرع الخطى ونحن فى فزع جديد وعند ما عدنا الى القارب كان قد جن الليل والنهر يتنفس بالنسيم البليل

وما كان اجمل العودة الى الفندق المشرق البهيج حيث كان نداء الجرس المترجح يدعو الجميع لاداء فريضة الزينة المسائية الهادئة ! ! !

## ١٣

# عقارب وثعابين

وفى نفس هـذه الليلة التى كانت أولى ليالى اقامتى فى فنـدق الشلال الفخم وجدت الخادمة عند ما دخلت غرفتى تضع الكلة حول سريرى فسألتهـا قائلة : ماذا تعملين . هل يوجد هنا بعوض فى هـذا الفصل ؟ فقالت كلا ياسيدتى أما

البعوض فلا أثر له هنا فقلت لها وماذا يوجد اذن ؟ ولكنها سكتت ولم تنبس ببنت شفة فأصررت على سؤالى وقلت لها ربما كان هنا ما هو افظع من البعوض هل يوجد هنا شيء من حشرات المناطق الحارة ؟ فتقول لا يا سيدتى أبداً . هنا لا يوجد شيء ولكن فى الفنادق الاخرى يوجد منها كثير أما هنا فلا توجد واحدة فسألتها وقد عيل صبرى قائلة : واحدة من أى شيء ؟ ولكن الصبية تخرج مسرعة وتتركنى كما لو كانت لم تسمع سؤالى فصممت على أن أسأل بعد قليل عن سر هذا السكوت

بعد منتصف الليل عند ما انتهى الرقص فى الصالة الكبرى سمعت بمجرد أن عدت الى غرفتى ضجة عالية فى المشى فخرجت الى الباب لأرى ماذا حدث فاذا سيدة سويدية مضطربة مرتاعة عليها ملابس لازوردية كانت تتكلم وهى متأثرة أشد التأثر مع جمهور من الخدم الوطنيين الذين كانوا يجرون نحوها من كل صوب وتقول لهم : عقرب ! كان هنا عقرب فى حجرتى . خرج من باقة الزهور التى احضرتها لى

البستانى فى الظهر ! عقرب أصفر . أخضر . كبير الحجم . هكذا ! ! فسألناها جميعاً قائلين أين هو . وأين ذهب ؟ وكان فى هذا الوقت قد خرج جميع النازلين بالغرف المجاورة بالفندق فتفتح السيدة بابها باحتراس ونحن ننظر بيقظة وحذر على العتبة ولكننا لا نجد شيئا . أما الزهور البريئة فكانت تتألق فوق المائدة ولا أثر بها للعقارب

ولكن عدم وجود العقرب زاد فى ارتياعها بدلا من أن يهدئها وبينما ينظر العبيد السود متمددين تحت المفروشات اذا هى لا تنقطع عن الصياح قائلة : كان هنا . كان هناك . كان كبيرا جدا هكذا ! ! يجب أن نبحث عنه . يجب أن نجده .

حضر بعد ذلك رئيس الخدم والبواب والسكرتير فكانت السيدة تعيد لكل قادم وصف العقرب الذى كان يكبر ويزيد بعض السنتيمترات عند كل رواية وأخيراً وصل أيضا المدير وكان رجلا ظريفا غاية فى الرقة ودماثة الخلق ولكنه كان كثير التشكك فلما سمع الرواية قال : لو كان هذا

الوحش كبيرا كما تقولين يا سيدتى إذن لما كان عقربا بل لكان تمساحا صغيرا ! ومع ذلك فقد أعطى الاوامر المشددة الى الخدم بأن لا يكفوا عن البحث عنه حتى يجدوه بينما كانت السيدة السويدية تريد أن تغير الغرفة بأى ثمن ومهما كلفها ذلك ولكن لما لم يكن فى جميع الفندق غرفة واحدة خالية فقد اضطرت لانتظار نتيجة البحث وكان الكثيرون يجتهدون فى تسليتها ليسروا عنها بأن يقصوا عليها حكايات وذكريات محزنة لحشرات المناطق الحارة التى قابلوها فى طريقهم

لم يظهر أى أثر للعقرب فى تلك الليلة وفى الساعة الثانية صباحا أمرت السويدية الخائفة بأن يوضع لها سريرها فى الحمام ونامت عليه ليلتها وفى صباح الغد أخذها الحمالان النوبيان لرؤية عقرب ميت وسألاها قائلين هل هو هذا ؟ هل هو بنفسه ؟ فتتأمله السيدة طويلا وأعينها ترتعد وتقول نعم هو وكان النوبيان يبتسمان فأعطتهما عشرة قروش وهدأت واستراح ضميرها .

ولكن ها هى الخادمة بعد ساعة واحدة تحمل فوق

قطعة من الورق عقربا آخر قتلته هى بيدها بالمكنسة وكان تحت السرير وفى هـذه المرة تقتصر المكافأة على ثلاثة قروش . ولما هدأت تماما أمرت بأن يعاد سريرها الى حجرتها ولكنها عنـد ما ترى خادم المصعد يحمل على كفه جثـة ثالثة صفراء تطرد الصبي الوقح المبتسم وهى غاضبة وتأمر أن يعاد السرير الى الحمام

فى هذه اللحظة كان يتكلم بعض الحاضرين عن موسى سليمان « صـديق الثعابين » الشهير الموجود بالاقصر وكان يقول بأن ذلك الحاوى عنـده القدرة على سماع الزواحف والحشرات واستجلابها اليه من أى مكان كانت . فكرة صائبة ! ولماذا لا ندعو الى هنا بسليمان لا ليبحث عن عقرب السـيدة السويدية فحسب ولكن لـكى يظهر قدرته العجيبة ومهارته لجميع النازلين بالفندق ؟

سألنا عنه ذلك البواب البشوش فأكد لنا أن موسى سليمان رجل مدهش حقا ولا يوجد له نظير فى مصر كلها فلقد كان أبوه وجده وجميع أسلافه من الحواة ولذلك كان استدعاؤه

واحضاره هنا يكلف كثيرا لانه كى يتحرك من الاقصر يطلب مائة وعشرين جنيها انجليزيا — حقيقة انه ثمن باهظ ولكن مع ذلك فان هـذا الرقم اذا قسم على جميع النازلين بالفندق لا يُعدُّ شيئا مذكورا

لم يعارض فى فكرة احضاره سوى شخص واحد من النازلين بالفندق هو الدكتور لامبرتس وهو طبيب من كولونيا حضر الى أسوان مع عروسه الالمانية الشقراء الصغيرة المصدورة فانه قال ولكى أقول لكم الحقيقة انى رأيت فى الاقصر سليمان الشهير فقد كان يدور فى حدائق الفنادق ومعه صبى صغير يحمل له سلة غريبة الشكل مغطاة بخرقة حمراء وكان يتفوه بألفاظ غريبة ويحرك الصخور بعابة فى يده ثم يقف بغتة ويمد يده بين الاحجار وبعد بحث طويل يجذب ثعبانا من ذيله ويعرضه علينا وتبدو على وجهه علائم الانتصار ثم يضعه فى السلة التى كان يسرع الصبى باغلاقها . فسألته احدى السيدات عما اذا كان يصفر بصفارته وعما اذا كانت ترقص الثعابين ؟ فقال لا أبدا . فانه لما كان يعرف صولتها

وانفتالها فانه كان يرى من الضرورى أن يبقيها بجدرة ولقد شككت فى أنها ربما كانت موضوعة مقدما فى احد المكامن دون أن نراها أو ربما كان يحملها معه فى طيات عباءته — وفى هذه اللحظة ظهر البواب الذى كان اختفى منذ هنيهة وفى يده وعاء كبير من الزجاج كانت تعوم فيه فى الكحول مجموعة من الزواحف وعدد من العقارب وبعض الافاعى العظيمة وقال : كل هذه وجدها موسى سليمان هنا . فصاحت السيدة السويدية قائلة . يا الهى هل وجدها كلها فى غرفة نومى ؟ !

فقال لها البواب مؤكدا . لا يا سيدتى بل وجدها بين صخور جزيرة فيلى وما كان يمكن أن يكون خدعنا لانها كانت أول مرة يذهب اليها معنا

فاتفقت آراؤنا جميعاً على أن استدعاء موسى سليمان يكون مسليا ويكون له شأن عظيم وسرعان ما أرسلنا له دعوة تلغرافية

١٤

## الحاوى

فى ظهر اليوم التالى يصل من الاقصر سليمان موسى الشهير بعمامتـه البيضاء الكبيرة ووجهه الاسود وعباءته الفضفاضة ومن ورائه الصبي يحمل الغابة والسلة مغطاة بالخرقة الحمراء وكنا جميعا ننتظره فى دهليز الفندق ويتقدم معه الدكتور لامبرتس حديثـا تمهيديا بالانجليزية ويطلب منـه بسياسة لطيفة أن يخلع عباءته لحظة اذا لم يكن لديه مانع ولكن سرعان ما يظهر الغضب على وجه سليمان ويلتفت الينا جميعا بعيونه الملتهبة ثم يبتدئ فى خلع ملابسه وهو يكاد يتميز من الغيظ ويلقى على الارض بعباءته التى كانت تغطى كل جسده ثم يرمى شيئاً آخر أصغر منهـا قليلا كان يلبسه تحتها ثم جلبابه وهو عبـارة عن قميص أسود طويل ثم جميع ملابسه الاخرى الرخوة المعتمة على رخام الارضية الناصع البياض فينتشر فى

الهواء أريج غريب كأنه المسك أو العنبر ولعل هذه النكهة
هى التى كانت تخيف منه الزواحف وتجذبها اليه ، وبينما نحن
كذلك اذ يصرخ الدكتور لامبرتس فى وجه سليمان الصاخب
الذى كان يظهر أنه يريد خلع ملابسه والتجرد من جميعها قائلا
قف . قف . ونقول له نحن أيضا : انتظر وكفى . وكان كل
واحد منا ينظر من آن لآخر فى السلة الغريبة التى وجدناها
خالية وبينما يتناول ملابسه ثانيا يقول لنا بحدة : عن أى شىء
تريدون أن أبحث وفى أى مكان ؟ فيدعوه المدير الى الصعود
الى الدور الاول ويشير له الى غرفة خلاف غرفة السيدة
السويدية ونحن جميعا نتبعه صامتين فيدخل الغرفة ويستنشق
هواءها لحظة ويضرب بغابته الصغيرة فى كل ركن من
أركانها ثم يقول : لا شىء هنا . ويخرج الى المشى فيتبعه
المدير ونحن من ورائهما ويفتح له غرفا أخرى وفى كلها يدخل
سليمان ويتمتم بعبارات غير مفهومة ويعود خارجا منها وهو
يقول : وهنا أيضا لا شىء . ولكنه لا يكاد يخطو عتبة
غرفة السويدية حتى يصيح قائلا : هنا عقرب ! انى لأشم

رائحة عقرب! ثم أخذ يضرب بعابته على جميع الاثاثات ويتفوه
بصوت مرتفع بعبارات منسجمة غريبة وماهى الا هنيهة حتى
يخرج من أسفل الصندوق ذلك الوحش القاتل. عقرب لم أر
فى ايطاليا له مثيلا طول حياتى اخضر اللون يكاد يكون شفافا
أمسكه سليمان ووضعه مدة على كفه الاغبر ولمسه بطرف
العصا بخفة ثم وضعه على المائدة الخشبية اللامعة وقال لنا انه
الآن قد تخدر تماماً ولن يتحرك وفى الواقع بقى العقرب جامدا
فى مكانه يحرك أرجله وذنبه بخفة ثم رسم سليمان خطا طوله
بعض سنتيمترات وقال للعقرب يمكنك أن تحضر حتى هذه
النقطة ولكن ليس لك أن تتخطاها فيتحرك العقرب ببطء
على طول الخط المرسوم ولكنه عند ما يصل الى نهايته يقف
بلا حركة فيأخذه سليمان بيده ويلقى به فى السلة التى كان يحملها
الصبي مدلاة الى جانبه. ولكن هاهو الحاوى لا زال مكتئبا
ولا زال يشعر بالاهانة التى لحقته وكان لا بد من كثير من
التهنئات والاعتذارات وفناجين القهوة لغسل هذه الاهانة
وحتى يهدأ تمام الهدوء ! ويلتفت نحونا ويقول والآن ماذا

تريدون أن أفعل ؟ فيقترح الدكتور لامبرتس أن نسير على طول شاطئ النيل للبحث عن الثعابين نخرج من الفندق ونحن من ورائه واذ وقف على الشرفة رفع عينه نحو السماء وكان النهار يقترب من نهايته فيقول يجب أن نسرع لانه متى غربت الشمس تنام الثعابين . فنوسع الخطى ونجتاز الحديقة الى طريق منحدر مواز لشاطئ النيل وهنا نزول آخر ما فى نفوسنا من شك فى مقدرة موسى اذ من الممكن أنه عند ما كان يستدعى فى الاقصر لعرض ألعابه التياترية المدهشة كان يلجأ الى الحيلة ان لم يكن لقصد تسهيلها فعلى الأقل بسرعة القيام بها وربما كان يرسل قبله صبيه الصغير بالسلة حيث يلقى منها فى أماكن متفق عليها بينهما أفعى نائمة أو احدى الحيات المخدرة الصماء ولكن هنا لا سبيل الى الغش مطلقا فانه يسبقنا على طول شاطئ النهر المقدس بصلواته ودعواته ويشوح بعبايته فى الهواء تارة ويحرك بها الصخور والجذوع تارة أخرى وهو يقول « أيتها الثعابين يا من أطعت نداء أبى ونداء جدى منصور ونداء شيخنا الرفاعى أطيعى اليوم

نداء موسى سليمان ! . أيتها الثعابين باسم الله الواحد آمرك أن تسمعي صوت موسى سليمان وأن تخرجي من أوكارك ومخابئك . أيتها الثعـابين . . . . ! ! ثم يسكت ويقف بغتة ويستنشق الهواء بخياشيمه الخافقة ويلتفت الينا صائحا بعبـارات غير مفهومة ثم ينحنى على الارض بسرعة ويدس يده فى كومة عالية من العشب الجاف ويسحب ثعبانا رفيعاً وثابا جبارا من ذنبـه فاذا هو مثلث الرأس لامع العينين خبيثهما يتموج لسانه فى الهواء كأنه شريط من القماش فى مهب الرياح . ويقول لنا ان هذا النوع من الافاعى يسمى « صِلّ كليوباتره » فأقترب لأمعن النظر فيـه ولـكن سليمان يرفع نظره نحو الشمس المنحدرة نحو الافق وينادى صبيه ويلقى بالثعبان فى السلة ليكون رفيق العقرب فيها

ثم يستمر فى طريقه أمامنـا مكررا سحرياته وهو فى حالة تهيج غريب وكان يصعقنـا بنظراته اذا ما تكلم أحدنا ولو همسا ثم يقف أمام جدار صخرى متهدم ويضرب بعصابته يمنة ويسرة ويلتفت الينا بعينيه الزائغتين المرتعدتين ويقول

لنا بصوت كأنه حشرجة الموت « هنـا أفعى » . ويمد يده النحيلة بين الاحجار وينزع منهـا ثعبانا هائلا قاتم اللون له كبود منتفخ حول رأسه ويقول لنا انه يسمى بالافعى « ذات القبعة » ويمسك به سليمان من رقبته ويدنيه من طرف ثوبه فيفتح الثعبان فما هائلا ويعض الثوب فلما ينزع الثوب من فمه اذا بسنتين عاليتين مدببتين عالقتين به ثم عرفنـا سليمان بعد أن خلص نفسه بجهد ومشقة من الثعبان الذى كان ملتفا حول ذراعه انه سرعان ما تنبت له غيرهما ثم بعد قليل يقول لنا « احذروا ! لا تتحركوا من أماكنكم فلقد أنذرتنا ! » ويشير لنـا الى الرمال تحت أقدامنا فلما أمعنـا النظر رأينا نقطتين صغيرتين بارزتين من الرمل كانتا قرنى حية صغيرة بلون اللحم وهى مخيفة قاتلة

كانت الرحلة مع موسى مؤثرة حقا فانه أمسك ثعبانا آخر من أسفله فاذا هو ينقض عليـه ويعض ذراعه فنرى الدم يسيل أحمر قانيـاً على جلده الاسمر فيصفر لونه ويعتريه شحوب شديد ولـكنه يستمر ممسكا به والثعبان يموج فى

الهواء ثم ينحنى على الجرح يبصق بلعـابه فوقه بينما يدلـكه له الصبي بشدة بحجر أسود أخرجه من جيبه

ولما يرانا الحاوى متأثرين يبتسم لنـا ويدنى من خده رأس الثعبان القلقة ويلاطفه بيده ثم يقول لنا : لا تخافوا فانه ما من ثعبان يقتل سليمان لان الثعابين تحب سليمان ولا يمكن أن تناله بسوء — وفى الاثناء وقع حادث مرعب ذلك أن صبيا حبشيا كان يتبعنا من مدة قصيرة هجم على حين بغتـة على سليمان وخطف الثعبان من يده وقبل أن يتمكن سليمان من أخذه منه فتح الصبي فكه الى آخره وأمسك بفمه رأس الثعبـان وهرسها بأسنانه ثم بصقها على الرمل وألقى ببقية الثعبان الى جانبها فاستمر الرأس والجسم يتحركان مدة وجيزة فسرت فينا كلنا هزة الرعدة والخوف مما رأينا وكنت أنا أكاد أفقد صوابى أما سليمان فبدت عليه علائم الجنون وانقض بغضب على الصبي ولكن الصبي نجح فى الافلات من بين يديه وأسلم قدميه للرياح فصاح سليمان . أيها القذر لتنهش لحمك الكلاب ولتفترسك الذئاب . أيها النجس لينزل

عليك غضب الارض والسماء . أيتها الثمايين انه حبشى وليس عربياً . انه من جنس الخونة اللئام عمال الفتنة والخصام

أيتها الثمايين . العفو والمغفرة !

أيتها الثمايين . اسمعى صوت موسى سليمان ! !

***

ولكن كانت الشمس قد غابت ونامت الثمايين ! ! !

## ١٥

# رحلة فى جزيرة ميتة

فيلى . يا لؤلؤة مصر ويا عروس النيل

انى لم أجد لك مثيلة فى كل هذه الارض الفرعونية

وبين جميع تلك المعابد والهيا كل ذات الجمال العظيم

أيتها الجزيرة الحزينة . أيتها الجوهرة الميتة فى زرقتك السماوية . ويا زهرة اللوتس التى ترفعين جبينك الشاحب من المياه التى تغرقك وتطفو عليك لقد كنت أحسبنى حتى

اليوم حقيقةسافرت وكان يخيل الى أنني كنت سائحةسعيدة في العالم عند ما كنت فى باريس ومونت كارلو واستوكهولم ونيويورك على ثلوج «چانجفرو» وتحت شلالات «نياجارا» ولكن سرعان ما ثبتت لى حقارة ما رأيت من بواخر وقطارات وقوارب وزلاقات . وضآلتها أمام رحلة اليوم البديعة عند ما دخلت ونفسي تملؤها الدهشة بقاربى فى معبد فيلى منزلقة فى المياه الهادئة العميقة بين الاعمدة ومتغلغلة فى هيكل «عرس أوريزيس» آله الاموات «وايزيس» كبيرة الساحرات

يملكنى احساس بدهشة مخيفة ويخيل لى أن خيالات الآلهة المفقودة قد سبقتنى وتتبعنى فى ظلام ذلك المعبد بينما تتصاعد من المياه العميقة دمدمة آلاف السنين الخافتة

ذهبت هنالك فى فجر آخر ايامى باسوان حيث حضرت لتوقظنى قبل انبلاج الصباح «هيلدا» الخادمة السويسرية وتخبرنى وهى تجهز الحمام بان اليوم سيكون كثير الرياح كما تدل على ذلك مياه النيل وحقا كانت تقول فاننى عند ما

دخلت الى الحمام رأيت والدهشة آخذة منى كل مأخذ أن الحوض ممتلئ بسائل أصفر ثقيل فغطست فيه وكان يخيل الى انني استحم فى قهوة . ثم لبست ثيابى مسرعة ووضعت على وجهى نقابا يقينى وهج الشمس والرمال والرياح وخرجت وكان ينتظرنى فى فناء الفندق محمد حسن ترجمانى الجديد وهو الذى أوصانى به ترجمانى المخلص يحيى حيث طلب هو الى الاقصر فسافر على عجل . درت بنظرى لأبحث عن الخيول والجمال التى اعتدت ركوبها فى هذه الجهة ولكنى وجدت بدلا منها حمارين أبيضين « بملابس السهرة » عليهما عقود مختلفة الألوان ويقودهما صبى زيتونى اللون وكان اسم أول الحمارين « كوك تيل » والثانى « روم پانش » وقد خلع عليهما السائحون الانجليز هذين الاسمين الظريفين . قدمهما لى الترجمان كما قدم لى أيضا الحمّار وكان اسمه احمد فقلت له :

ولكن اين توجد الجمال ياحسن . لقد كان يحيى يحضر لى دائما « روزفلت » الصاخب « وسارا برنار » الغضوبة ؟ فقال مبتسما : لا توجد هنا اليوم جمال ياسيدتى كلية ثم لما استويت

على سرج « كوكتيل » أكد لى أنه فى مثل هذه الرحلات الصحراوية القصيرة تفضل دائما هذه الحمير الاسوانية السريعة التى لا تكل ثم قفز هو أيضا على ظهر «روم پانش» وسرنا سيرا حثيثا فى طريق أسوان ومن ورائنا الصبي أحمد يجرى وهو قابض بأسنانه على طرف ردائه ورحنا نطوى الارض طيًّا الى الجنوب فى مواجهة مدينـة الشلال متخذين طريق الصحراء الذى يصعد من مقـابر الاوروبيين الى قبة الهواء « ضريح الشيخ » وهنا ينفتح أمامنا منظر بديع فنشرف على وادى النيل والشلالات والصحراوين الليبيـة ذات التربة الغبراء قليلة البرودة والصحراء الكبرى البيضاء الذهبية التى تسطع كما لو كانت كل ذرة من ذراتها تحوى شرارة من الشمس فيبطئ الترجمان فى سيره ليشير لى على تلك الساحة اللامعة التى لا حد لها ويقول : هنا يأتى المصابون بالروماتزم محمولين ولا يمكثون خمسة أيام أو ستة مطمورين فى الرمال الى رقابهم حتى تخرج من مسامهم المياه أنهارا فيقومون ويعودون الى بلادهم وهم حاصلون على أتم الشفاء — نزلنا

وسرنا ملتفين كالافاعى بين الكثبان الرملية واجتزنا غابة الأثل الوريقة ونعمنا بظلالها هنيهة ثم خرجنا ثانيا الى وهج الشمس ونورها الباهر وما كان أحسن السير فوق هذه الرمال الناعمة فانه كان يثير زوبعة فى هواء الصباح الصحراوى المسكر النقى . وكيف يمكننى أن أصف هذه النشوة الصحية العظيمة فان فى الصحراء لهواء خاصا يشعر من استنشقه بسرور يكاد يكون قاهراً ويشعر بحيوية عظيمة وبالرغبة فى الاندفاع والتقدم الى الامام حتى اللانهائية الطليقة الحرة . ويقول العرب كلما تغلغلت فى الصحراء كلما اقتربت من الله ! ؟ وحقا كان ذلك فاننى أحسست أنى بعيدة عن العالم ومشاغله وبينما يسير بى « كوكتيل » السريع فى زوبعة شقراء من الرمال أنظر حولى فاذا فضاء وهدوء وعزلة وسكون هو جلال رمزى لحديقة الله وأمامى الترجمان الوقور فى ثوبه الابيض الفضفاض جالس على متن « روم بانش » الذى يثير بأرجله الدقيقة غبارا أبيض فكان يخيل لى كأنه يخوض فى فيضان رجراج من الذهب وكان ثمت شيء واحد يعكر على صفوى وسعادتى

هو صوت أنفاس الصبي المترددة وهو يجرى خلفى وطرف
ردائه بين أسنانه فأدير وجهى الى ناحيته وأسأله قائلة : ألم
تتعب بعد يا أحمد ؟ فيقول كلا يا سيدتى . فأقول له ألا تريد
أن تتمهل قليلا أو نقف لحظة ريثما تستريح ؟ فيقول لا
يا سيدتى — ولكى يُظهر لى أنه لم يتعب يضرب بقبضة يده
ظهر « كوكتيل » فيجرى بسرعة زائدة . وقد قيل لى ان
هؤلاء الحمّارين لا يعمرون طويلا ويندر أن يبلغ الواحد منهم
العشرين أو الخمسة والعشرين سنة حتى يصاب بالسكتة القلبية
التى تقضى على حياتهم فأفكر وأنا منقبضة القلب فيما اذا
كان من الممكن أن يغير هؤلاء البائسون هذه المهنة القاسية
القليلة الفائدة وبدون شك يفكر كل الناس كما أفكر أنا
أمام هذه الآلام البشرية وكلهم يريد مثلى أن يمد الى المساكين
يد المساعدة وينقذهم جميعا ولكن اذ لا يمكنهم أن يساعدوهم
جميعاً فانهم لا يساعدون أحدا . ولكن أحمد يعاوده تعبه
واضطرابه الذى يظل مستمراً حتى أتعوده وأنساه دون أن
أشعر إننى صرت قاسية

يمزق سكون الصحراء العظيم صوت صفير قطار سكة حديد الشلال تلك القرية العربية التى تجلس القرفصاء على شاطئ النيل والتى حولها النشاط البريطانى من قرية بسيطة نائمة الى خلية نحل عظيمة مائجة فتجد فيها المصالح ودور الصناعات والمخازن والخيام وجمهورا عظيما من العمال والمهندسين حيث لا فقر ولا شقاء وتنبض فى الجو عن كثب نغمة الخزان الكبير ذلك البناء الذى يخزن فى اشهر الفيضان مياه النيل ليسرحها قليلا قليلا على قدر الحاجة عند مايأتى الصيف بجفافه المخيف .

أبطأت سير « كوكتيل » وأنا أخترق البلدة وناديت الى جانبي ترجمانى وقلت له : هل تعرفون يا حسن أن الانجليز أحسنوا كثيراً لبلادكم ؟ فيقول نعم أعرف ذلك وهو يحملق فى وجهى بعيونه الشرقيـة العميقة فأقول له : واذا كان الامر كذلك فلماذا تريدون أن تخرجوهم من مصر ؟

فيقول حسن وهو يشير الى جهة الغرب بحركة كهنوتية

تجعله كأنه تمثال برنزي : دوري الى اليسار ياسيدتي اذا كنت تريدين أن تذهبي الى النيل فتأخذي قاربا يوصلك الى جزيرة فيلي وأحس كأن روحه تهرب من بين جنبيه فلا أسأله بعد ذلك ولا أكلمه وندور الى اليسار ولكن بمجرد أن نخرج من البلدة نجد الرمال ثانية والهدوء والعزلة . وهنا يزمع حسن أن يجيبني على سؤالي فكان جوابه تشبيها بديعا اذ قال :

هي يا سيدتي أنك كنت رجلا فقيرا حزيناً أنهكه المرض ولك بيت قذر غير منتظم وكانت عائلتك فقيرة مسكينة متألمة . أثئذا جاءك طبيب محسن غني لزيارتك وقدم لك الدواء والمساعدة فضمد جراحك ورتب دارك وأدخل فيها النظام والصحة فستكونين له شاكرة . أليس كذلك ؟ فقلت له نعم هو كذلك . قال فتشكرينه على احسانه وتدفعين له خدماته وأجره على قدر المستطاع ثم تقولين له . الآن أحييك وأستودعك الله أيها المحسن الذي أنقذتني . حماك الله وكان معك . أليس كذلك ؟ فأقول انه لكذلك . فقال ولكن اذا كان هذا الطبيب لا يريد مزايلة دارك ولا الخروج

منها واذا رأيته يأمر وينهى أولادك وينهر أخوتك ويبذر الشقاق بين أهلك واذا رأيتـه يدير حدائقك ويستولى على حقولك وينبش فى قبورك . (وكان صوت حسن الذى كان فى أول الامر حلوا هادئاً يرتفع قليلا قليلا) — ولو أحسست بأنه يحتقر جنسك ويهزأ بإيمانك ويستخف بعقيدتك ويدوس كرامتك ويسمم أفكارك هل تقولين له انى أعلم ياسيدى أن كل ما تفعله هو لمصلحتى وأشكرك عليه أم تقولين له . أخرج الآن من هنا . واذهب بدوائك وعنايتك . اذهب بثروتك ومدنيتك . اذهب ودعنى حرة فى هذا البيت الفقير الذى هو بيتى أنا

وبينما كنت أحاول أن أسرى عنه وأبحث عن جواب يهدئ روعه نخرج من دائرة الكثبان المائجة وتمتد امام عيوننا بغتة ساحة عظيمة من المياه الهادئة المضيئة كأنها بحر من البلور فأسأله عن هذا السطح اللامع قائلة : وأين فيلى أين جزيرة السحر . جزيرة النيـل الهادئة التى تنحدر فوق طرف مصر الاخير ويرتفع فوق صدرها آخر معبد مصرى ؟

فيقول لقد اختنقت وغرقت فى هذه الامواج العميقة وراحت ضحية جوع الرجال وعطش الارض — ثم تبدو فوق المياه مناظر غريبـة هى قمم البرجين ورأس الصومعة التى تشبه القبة . والى جانب فيلى برز وحش الحجر والحديد والقوة والزئير ذلك هو الخزان الـكبير الذى عنـد ما تغلق أبوابه المائة والثمانون فى كل ربيع يهدئ مجرى النيل الشكس الهائج ويوقفه وعندئذ تتصاعد المياه يبطء حول فيلى فتتغلغل بين صخورها وتنساب بين نخيلها وتزحف بين عمدها ثم تقف من حولها وتطوقها بذراعهـا الرخو الذى لا يلين فتموت فيلى وتقف حيالها جبال النوبة الصحراوية الشاهقة حزينة مكتئبة كانها حراس ذلك القبر العظيم !

تلك هى فيلى التى رآها المؤرخ القديم سترابو فى كل جمالها وبجميع معابدها وكامل تماثيلها ونصبها وبغضب الشلالات التى كانت تلطمها صارخة حولها واننا لن نراها كذلك أبداً نحن الذين جئنا بعد ألفى سنة لتحيتها انما نجدها وقد أنهكها البلى وأتى عليها الخراب ولكنها ربمـا كانت لا تزال فى هذا

الغروب السماوى اجمل وابدع لأنها وان كانت ميتة الا أنها تؤدى رسالة الجمال وتحمل الينا هذه الامانة الرمزية كاملة غير منقوصة .

## ١٦

# احتضار فيلى

ينتظرنا على الشاطىء قارب لطيف به أربعة من البحارة النوبيين وصبي عربى جالس القرفصاء الى جانب دفته فتركنا الحمير فى حراسة احمد واخذنا امكنتنا تحت المظلات المتعددة الالوان وخرج بنا الزورق فى عرض النهر واخذ البحارة يجدفون فكانت تسمع لمجاديفهم نغمة منتظمة لذيذة واخذ الصبي فى الغناء وكان صوته عاليا رفيعاً ومؤثراً وكان يغنى وحده بعض مقطوعات من قطعة رثاء حلوة فيردد غناءه الرجال الأربعة وكان التباين غريبا بين صوت الصبي العذب الملائكى ومقطوعات العبيد الحلقية العميقة أما الانشودة فكانت :

« وريدة ياغزالة الصحراء . لا أود أن أحب غيرك من

النساء من يوم أنا أحببتك» انتهت الانشودة القصيرة واستمر البحارة فى التجديف فى هدوء وسكون فاستعدتهم انشادها ولـكنهم لم يفهموا كلامى فأبدى لهم حسن رغبتى الا أن الصبي الذى كان يجب أن يغنى بقى صامتا فهوى حسن على كتفيه بسوطه الذى كان يستعمله لسوق حماره « روم بانش » فاحتججت بغضب على هذا العمل فضحك العبيد وضحك أيضاً الطفل وأخذ فى الغناء «وريدة ياحمامة الصحراء» والرجال يرددون «الشمس تحرق . والنخلة بدون ظل . عندما تبتعدين عنى» ثم يسود سكون جديد تلية ضربة سوط جديدة على جسم الطفل ثم مقطوعة أخرى . « وريدة يا نافورة الصحراء . اسندى يديك الى جبينى . وابقى معى . »

فتختلط النغمة بالهواء ثم تضعف وتتلاشى

وعلى هذا النمط عبرنا مرآة المياه الجلية وفجأة يخبرنى حسن اننا نسبح فوق جزيرة غارقة وأن جزيرة فيلى هى الآن تحت زورقنا فأتقدم وأحدق فى المياه الراقصة اللامعة فيخيل الىّ اننى أرى ضوءا ملتويا وبياضا غير واضح فى

مناطق مظلمة وافكر فى أن المدينة العظيمة التى بلغ فيها الفن المصرى أسمى منزلته ترقد تحتنا وان تحت قاربنا هيكل « هارندرتس » وصومعة « نكتانيبو » ومعبد « هاتور افروديتى » المقدس واننا نسبح فوق أعمدة « أوغست » وعمائر « أدريانو » وبوابات « تيبريو » وعند ما أرفع عينىّ المحملقتين نمر أمام تلك القبة العالية التى كنت لحظتها من الشاطئ وهى صومعة « ترايانو » الذى لم تكمل فتظهر أعمدتها الباهتة أدق وأطول وتتضاعف على صفحة المياه المرتعشة . الآن نقترب من برجى معبد « إيزيس » واعمدته الهائلة المزخرفة بقايا أجزائها السفلى حيث يظهر لنا كأن « إيزيس » العظيمة تبسط لنا ذراعيها ويقف القارب أمام الباب فنجد على عتبة المعبد المائجة زورقا آخر فى انتظارنا ولكنه كان صغيراً جداً ويقوده بحار أسود طاعن فى السن تعلوه سيما الوقار فينزل حسن ويقف على قدميه ويساعدنى فى المرور من قاربنا الى هذا الزورق الصغير ثم يظل هو والنوبيون تحت وهج الشمس وأمر أنا وحدى والنوبى الشيخ تحت عقد البوابة العظيمة بين العمودين

الكبيرين وأدخل فى ظلال المعبد الرطيبة . هأنذا فى بيت «أزيس» الآلهة الكريمة الشافية . وكان الشيخ يجدف صامتاً ونحن نمر من جهة الى أخرى وندخل من فراغ الى آخر زاحفين بين الاعمدة ومنزلقين تحت البوابات وكانت المياه مرتفعة حتى أن رؤوس الاعمدة كانت فى متناول يدى فكنت اكشف عنها باصبعى المرتعد أوراق الشجر المتساقطة والغاب الرفيع وكمائم الزهر المفتحة والزنبق القديم

السكون شامل فلا تسمع غير انفاس المياه المتصاعدة والقارب ينساب بنا من طرقة الى طرقة ومن دهليز الى دهليز فمن غرفة التطهير الى الهيكل العظيم المظلم المنقوشة جدرانه بألوان زاهية غاية فى البهجة والتنسيق وتشف عن ذوق سليم من خضراء وزرقاء فبنفسجية وبرتقالية وأما السقوف فكانت مصبوغة باللون اللازوردى القاتم ومرصعة بالنجوم وتشقها زوبعة من البزاة والصقور

نجتاز هذه الدهاليز الهادئة الظليلة متجهين شطر قبلة إله القمر المقدسة حيث تموج المياه وتضىء فى كل مكان

فتصبغ جو المعبد المدهش بلون غريب .

أيها الهدوء الساحر . وأيها السكون العظيم . قلما أكون قد أحسست فى أية كنيسة من كنائس العالم بالصلاة تتحرك بها شفتاى كما أحس الآن . ثم يأخذ البحارة فى الغناء وهم واقفون تحت الشمس خارج المعبد وكأنهم ينادوننى .

وداعا يا فيلى المقدسة . وداعا أيتها الجزيرة الحزينة المفقودة ! !

انى سأظل أسمع فى أحلامى وأنا بعيدة عنك خرير المياه تتلاطم بين جدرانك وتشهق بين عمدك كأنها تبكى لفقدك ! !

## ١٧

# جنازة فى الصحراء

كانت شمس عظيمة تسطع فوق بساط الصحراء عند ما عدت من رحلتى فى جزيرة فيلى مجتازة بمجارى السريع كثبانا رملية لا عداد لها فقابلنا سربا من النساء الطويلات القامة

النحيفات الملتحفات بالملاءات السود آتيات من النيل وعلى رءوسهن جرار ثقيلة تفيض بالمياه ويسرن عاريات الاقدام فوق الرمال الملتهبة عائدات الى أكواخهن الطينية البعيدة فشعرت عند رؤيتهن بعاطفة الشفقة نحوهن وقلت : وارحمتاه لكن أيتها المسكينات ! فلما سمع ترجمانى كلمتى هذه أدار وجهه ناحيتى وسألنى فى دهشة قائلا : ولماذا يكن مسكينات وكل أسباب السعادة حاضرة لديهن ؟ فقلت له : أفى الحق أنهن سعيدات ؟ وطبعاً كانت لمحمد حسن أفكار خاصة عن السعادة النسائية فسألته قائلة: وعلى أى شيء اذن تشتمل سعادة المرأة ؟ فقال ان سعادتها فى أن يكون لها إله تؤمن به ورغيف تأكله ورجل تطيعه ! فظهرت له غرابة هذه الفكرة الاولية للسعادة الزوجية كما ظهر لى أيضاً أنها حقة من وجهة النظر العربية عند الرجل ثم قال : فكرى وأعيدى على نفسك هذه العبارة فى تؤدة وستفهمين ما تحتويه من حكمة فأعدت على نفسى : إله أومن به ورغيف آكله ورجل أطيعه !! وكانت اذ ذاك نظرات المسلم العميقة تتوقد بتعصب لطيف ويقول : واذا

شئت فانني أقص عليك حكاية : كانت امرأة تسكن فى واحة « حمره » ورأت فيما يراه النائم كأن بابها ينفتح وكأن زوجها يظهر على عتبته ويقول لها قومى واذهبي الى الصحراء فانى مرسلك الى ( بئر عنبر ) حيث يسكن الشـيخ الصامت فاذا جئته فاطلبي اليه أن يحضر للقائى قبل المساء ولـكى تصلى اليه يجب أن تسلكى الطريق المؤدية الى بئر ( الحراطرة ) حيث النخلات الثلاث حتى تصـلى الى قبر ( العقيق ) الذى يجلس بجانبه حسونه الشحاذ الأعور . أفهمت ذلك ؟ فقالت له فهمت فيقول اذهبي اذن فتضع المرأة قناعهـا على وجهها وتذهب ( وكل هذا فى الحلم ) وبعد أن تترك بئر الحراطره حيث تنمو النخلات الثلاث تقبل على قبر ( العقيق ) وترى حسونه الشحاذ جالسـاً فينظر الى وجهها بعينه الوحيدة وبناديها ولكنها تخشاه وتمعن فى الهرب فينهض ويتبعها جاريا واذ يلحق بها يمسكها من رقبتها بيده الطويلة النحيلة ويخنقها — كان هذا هو الحلم فاستيقظت المرأة وهى تصرخ وتصيح صيحة الرعب والالم وتحمد الله اذ كان هذا حلما ولم يكن حقيقة واقعة . ولـكن

ها هو الباب ينفتح وها هو زوجها على عتبته يقول لها قومى واذهبي الى الصحراء حتى تصلى الى ( بئر عنبر ) حيث يقيم الشيخ الصامت واطلبي اليه أن يحضر للقائى قبل المساء فترتعد فرائص المرأة و تصطك أسنانها — ويقول لها زوجها ويجب أن تسلكى الطريق الذى يبتدئ من بئر ( الحراطره ) حيث النخلات الثلاث حتى قبر ( العقيق ) وهناك يجلس حسونة الشحاذ الأعور فتقول المسكينة : آه ياسيدى !! ولكنه لا يلتفت اليها ويقول لها هل فهمت ؟ اذهبي اذن فتطيعه المرأة وتذهب دون أن تبدى كلمة ولكنها تذهب ثم لا تعود .

بعد ذلك سكت محمد حسن فقلت له ولكن اسمح لى أن ألاحظ أن الطاعة فى مثل هذه الحالة لم تؤد الى السعادة ولكنها كانت مجلبة للموت ! فقال العربى : وهل من طريق الا ويؤدى الى الموت ؟ فقلت له ومع ذلك فقد كان يمكنها أن تقص رؤياها على زوجها كما كان فى استطاعتها أن تتفاهم معه أو تناقشه . فصاح قائلا : أتناقشه ؟ ثم أسبل جفنيه كما لو كان يريد أن يضع حدا للحديث ثم قال :

لَأن يكون فى فراشنا سبع عقارب خير من أن تناقشنا المرأة

وبعد مسيرة كيلو متر واحد من أسوان يصل فجأة الى سمعى صوت مرعب مخيف وصيحات ألم وصرخات تتصاعد من بيت قريب يكاد يكون مدفونا بين الكثبان الرملية . رباه . ماهذا يا حسن ؟ انها جنازة ياسيدتى : ثم يقول الحمّار الصغير الذى كان يتبعنا بسرعة أنفاسه المترددة من بعد الشقة وطول الطريق : لابد وأن يكون الشيخ عبد الرحمن البدوى قد توفى الى رحمة الله . فأبطأنا سيرحميرنا لكى لانصل بسرعة الى الكوخ الحزين الذى كان يخرج منه فى ذلك الوقت مشهد الجنازة وكان على عتبته أربعة رجال يحملون النعش على أكتافهم ومن حولهم جماعة كبيرة من النساء كن يندبن ويعولن ويولولن بجنون وكن من وقت لآخر يرفعن أكفهن الى السماء وينحنين على الارض ويحثون الرمال فوق رءوسهن وكان مع الحمالين قليل من الرجال وكل هؤلاء النساء الباكيات يتحركن ببطء ويأتين تجاهنا ولم يكن الميت موضوعا فى

صندوق ولكنه كان ملفوفا ببساطة فى ثوب خفيف ذى ألوان زاهية ويحمل حيث يدفن على مسافة ليست بالبعيدة ولا يكشف المقبرة شيء غير بعض الاحجار الناتئة من جميع جهاتها بين الرمال تدل على أن فيها موتى آخرين يستريحون الراحة الابدية . وأشار لى احمد على بعد بضع خطوات الى حفرة ضيقة فى الرمال كانت تحلق حولها زوبعة من الطيور فى انتظار محزن وقال لى حسن الذى كان يلاحظنى :

لا تحزنى يا سيدتى فان عبد الرحمن هذا كان شيخاً هرما ولذا فان النساء لا يبكين الا قليلا ولو أنه كان شابا لرأيتهن يمزقن ثيابهن ويشددن شعورهن ويغطين رؤوسهن وصدورهن بالرماد ولكن هذا الشيخ كان قد وصل الى نهاية سيره وسيستريح الى الابد موليا وجهه نحو مكة ولسوف يبعث ويلقى ربه ولكن ذلك لن يكون الا عند ما يرث الله الارض ومن عليها ولا يبقى على وجهها أحد . ثم يؤكد ذلك الصبي احمد قائلا : نعم يا سيدتى ان الموتى يبعثون حقاً فمن عمل صالحا فسيلقى الله بوجه أبيض أما من عملوا سيئاً

فسيقومون ووجوههم عليها غبرة ترهقها قترة وفيما نحن نتحدث كذلك واذا بصيحات جديدة ونساء أخريات يأتين جاريات من كل صوب كأنهن بقع سوداء على هذه الساحة العظيمة الصفراء ليلحقن بالجنازة وهن يصرخن صرخات عالية مولولات نائحات فسألت حسناً عما يقلنه فقال انهن يقلن يا ويلاه . وامصيبتاه ! ! . . . . . . .

ولكن هل كل هؤلاء المسكينات أقارب الميت ؟ فيقول لا يا سيدتى فانهن غريبات أتين من مسافات بعيدة وربما كن لم يرين الفقيد ولم يعرفنه من قبل — ولكن علام اذن البكاء والعويل ؟ فقال ان النساء اللاتى يأتين اليوم لبكاء هذا الميت يعلمن حق العلم أنه اذا ما مات واحد من بيوتهن فان نساء هذا الميت يذهبن لبكائه وبهذا جرت العادة فى هذه البلاد — ثم يستمر حسن يقول بحركة كهنوتية : ان الميت الذى لا يبكيه أحد لا يجد فى قبره الراحة والهدوء — الآن تقترب الجنازة منا والرجال يسيرون ببطء وخشوع بحملهم الصغير الخفيف وكان يبدو جلياً من هذا النعش ذلك الجسم اللين

المتمدد تحت الاجواخ الزاهية اللون — وعند ما يمرون أمامنا يلتفت حسن واحمد جهة الشرق ازاء مكة المقدسة ويتفوهان بصوت عال بصيغة الاسلام ( الله أكبر ولا اله الا الله لا شريك له ) ويكرران مرات كثيرة هذه العبارة التي ينطق بها كل يوم ثلاثمائة مليون من المؤمنين . ثم يضيفان عليها بترتيل لطيف هذه العبارة ( يا الله . يا اله الشرق والغرب يا نور الشمس والقمر . ارحم عبدك الذي اخترته الى جوارك ) ثم سكتنا فى هدوء بينما كان الحمالون يمرون بنا وهم ذاهبون لينزلوا النعش الى جانب الحفرة المفتوحة وكان الرجال الذين من ورائهم يكررون بصوت مرتفع آيات من القرآن . ولكن النساء الباكيات اللاتى كن يزحمن موكب الجنازة فقد أبطأن فى سيرهن عند ما مررن بنا لكى يتأملننا فتبدو عليهن دهشة الطفولة ويحملقن مندهشات فى قبعتى وثيابى ونقابى الازرق الطويل ووقفت احداهن وكانت تبكى لتسأل حسناً وأحمد عنى وترك أخريات موكب الجنازة واقتربن منى وكن كلهن غير مقنعات يمسكن بافواههن أطراف ملاءاتهن

وهى حركة غريزية فيهن عند رؤية الاجانب فى الصحراء .
أشير لهن اشارة التحية وما أسرع مايتجمعن حولى ويحطن بى
ويكشفن وجوههن ويلمسن بأصابعهن المرتجفة ثوبى وقناعى
ويدى وكانت عيونهن النجلاوات العجيبات تفحصنى
وتستوضحنى وكان فى هذه الوجوه النحيفة كثير من الملاحة
ورغبة شديدة فى التحدث الى ومعرفة ما اذا كنت مسرورة
أو متضايقـة منهن وأزاحت احداهن ملاءتها السوداء التى
كانت تغطى كل جسدها الى الخلف وأرتنى طفـلا صغيراً
نائما على صدرها برنزى اللون مثقـلا بالرقى والتمائم وكانت
رؤيته سارة حقا ومنظره لطيفا فأردت أن أظهر اعجابى به لامه
واستحسانى لشكله فقلت لترجمانى : كيف يقولون بالعربية
ان طفلك جميل ؟ فصاح بى قائلا : حذار من أن تقوليها لان
الشياطين الخبيثة اذا ما سمعت أحدا يقول عن طفل انه جميل
فانها لا تلبث أن تأتى لاخذه ليلا وتحرم منه أهله . فاكتفيت
بأن لاطفت الطفل ومسحت على رأسه ويده الصغيرة وفى
الحال حمل الى نساء أخريات أطفالهن المخبأة تحت ملاءاتهن

الواسعةوأرينها لى وأردن أن ألمس أيديها أو أقدامهافيتداخل حسن ويقول لهن : وافضيحتاه ! هل نسيتن الميت ؟ ويشير الى الرجال المجتمعين حول الحفرة فينذعرن ويجرين ولكن وحدة منهن تقف مترددة الى جانبي وهى التى كانت أرتنى طفلها الصغير أولا وتخلع فى رقة وهدوء من معصم الطفل تميمته وتلقى بها الى حجرى . أريد أن أردها اليها . أريد أن أكافئها . ولكنها تبدى حركة ألم أفهم منها أن التمائم لا ترفض ولا يدفع لها ثمن ولأجل أن أشكرها أدنيت هذه الحلقة العاجية من شفتى فأشرق وجهها وتهلل وقالت كلمة تحية وهى رافعة يدها نحو السماء « على الله ! » وتركتنى وانسلت تموج فى ثوبها الأسود الفضفاض فسألت حسناً عن معنى كلمة « على الله » فقال ان معناها أن يشملك الله برعايته فقلت فى نفسى :

على الله . يا ايطاليا العزيزة النائية ! ! !

* * *

# بين مفاخر طيبة الخالدة

## ١٨

## رحيل

يقع اضطراب غير عادى فى فندق الشلال . فجميع النازلين بالفندق جالسون فى النوافذ والعبيد يجرون فى المماشى والطرقات ينادى بعضهم بعضاً ويتكلمون فيما بينهم بتأثر واهتمام شارحين أمراً لم يكن منتظراً . ما هذا ؟ هل تمطر السماء ؟

تحدث هذه المعجزة مرة واحدة فى العام والوطنيون ذوو الوجوه السوداء يحدقون بأبصارهم فى السماء ويتأملون تلك الستارة الشفافة الفضية التى تقنّع المدينة . أما الدكتور لامبرتس فيتنفس الصعداء وهو جالس الى نافذة غرفته ويقول بالالمانية : ان السماء لتمطر وتروى غلة هذه الأرض القاحلة

ولكن سرعان ما ينقطع المطر وسرعان ما يتبدد ذلك

الستار الشفاف وتضيء الأرض ثانية أعظم ما كانت اشراقاً وأشد حرارة من ذي قبل

بعد ساعات قلائل سأعود الى الاقصر وأترك هذه المدينة البديعة التي ربما كان سحرها العظيم في بهجة ألوانها التي تأخذ بالالباب فان ذهب رمالها المتكسر وتلألؤ صخورها السوداء ونقاوة سمائها وزمرد مياهها . كل أولئك يكسب العين واللب نوعا من النشوة المدهشة الباهرة ولكن قد يكون هذا المنظر في بعض الحالات النفسية مخيفاً وقد لا ترتاح اليه بعض النفوس فلقد دخلت غرفة العروس الالمانية الشقراء وهي تلك المصدورة التي جاء بها زوجها وطبيبها الدكتور لامبرتس الى هنا فراراً من الشتاء الالماني القاسي . دخلت اليها كي أحييها وأودعها قبل سفري فتقول لي : ان عندي مرض الحنين الى الظل والى ذلك السماء الرمادي المتلبد بالغيوم ثم تسألني قائلة : هل تسافرين ؟ وتتنهد تنهداً عميقاً وتحملق في بعينيها النجلاوين — وهل يمكنني أن أسافر أنا الاخرى لأتخلص من هذه الاضواء الغريبة وهذه الأنوار

الباهرة ؟ فقلت لها : ولكنك هنا تنالين الشفاء فتهز رأسها وهى تبتسم ابتسامة المحزون وتقول : هنا لا يمكن الاستشفاء . لأن الليل يأخذ ما يعطيه النهار

وربما كان ذلك صحيحاً لأن حر النهار الشديد يعقبه برد شديد على أثر اختفاء الشمس خلف الافق ويرتفع فى الجو من النيل ضباب خبيث خداع وعند ما يهب الهواء على حافتى الصحراوين تدخل الرمال المتصاعدة فى الرئتين فتجرحهما وتضعفهما فلا يكاد المرضى يجرءون على استنشاق الهواء أو التنفس ثم تستمر قائلة بصوتها الطفلى وكثيراً ما يحدث لى وعلى الخصوص فى الليل أن يملكنى احساس بالقلق والخوف كلما فكرت فى أننى هنا بعيدة عن بيتى ووطنى ومن وجودى هنا فى طرف مصر السحيق وحولى عزلة الصحراء الموحشة .

وارحمتاه لك أيتها المسكينة . لقد فهمت سر ألمك فلقد أصاب قلبك هذا المرض الذى يعترى كثيراً من السائحين فى بلاد الغربة فيملك عليهم مشاعرهم ( وهو خوف التغرب

والوحشة ) انه مرض يأتى بغتة حتى لذوى الجسوم السليمة بدون سبب وأكثر ما يحدث فى أكثر الساعات مسرة عند ما يجتمع الجمهور المنشرح حول الانسان فينقبض قلبه وتهيج اعصابه ويشعر بشىء كالدوار أو الغيبوبة وتعتريه السآمة والملل ثم الاحساس بالخطر وبالعزلة بين كثير من الغرباء فيأخذك نوع من الجنون فتقولين السفر . السفر . السفر حالا وبأول قطار وبأول باخرة توصلك الى وطنك فتجدين الاشياء المعتادة فى دائرتها المحدودة بعيدة عن اللانهائية المخيفة بعيدة عن الغربة ! !

هكذا أشعر عند ما أتأمل ذلك الوجه المحموم بين الوسائد وأسمع قلق أنفاسها القصيرة المترددة وأفهم أى جحيم يمكن أن تكون تلك الارض الافريقية بأنوارها الزاهية المتلألئة ومحاسنها الباهرة لهذه الزهرة الشمالية الصفراء التى تضعف وتذبل . وسرعان ما تعود الى ذاكرتى والقلب منقبض ونفسى تفيض أسى وحزنا ذكرى مشهد الجنازة الذى رأيته بالامس بين الكثبان الرملية وذلك الفراش الكهفى الضيق

فى الرمال وتحليق الطيور المشئومة فى السماء فتأخذنى رعدة شديدة تسرى فى أعصابى كلها ولكنى أخرج من عندها وأنا أودعها بكلمات مشجعة ومسلية . واذ أترك غرفتها وأخرج الى ضوء الشمس وحرارتها أشعر بتأنيب ضميرى ويخيل الى انى ارتكبت عملا قاسياً نحو هذه المخلوقة الحلوة رهينة الموت!

## ١٩

# تماسيح !!

أنزل الى دهليز الفندق بعد أن جمعت كل حقائبى وحيث أجد ثلاثة أو أربعة من الخدم ببذلاتهم القرمزية المطرزة بالذهب واقفين فى زهو وخيلاء لتأدية التحية وللاستقبال . ويالها من مناظر مشرقة تذكرنى أينما سرت بايام اقامتى البديعة بالقرب من الشلالات . ها هو الترجمان المخلص محمد حسن يأتى ليستأذننى فى الانصراف ويباركنى بعباراته اللطيفة ويدعو لى بسلامة الاياب وكذلك يحيينى الحمّار النحيف

البدن احمد تحية رقيقة قائلا « نهارك لبن » أى أن تكون أيامك بيضاء كاللبن ويضع يده على قلبه ثم ينصرفان وانا انظر من الشرفة ببعض الاسف والحسرة رفيقى رحاتى المونسين يبتعدان

لم يكد يختفى شبحاهما عنى حتى أرى مرشداً آخر عظيم الجسم يصعد السلم مسرعا دون أن يتعثر فى اجواخه البيضاء الفضفاضة ويحيي التحية المعتادة فينحنى حتى لتكاد رأسه تبلغ الارض ثم يرسل يده الى شفته ويقول : انى أقبل مواطئ قدميك ياسيدتى . اسمحى بان آخذك الى جزيرة فيلى والى قبر الشيخ ودير القديس سيمون ومعبد فيلى . وهنا يقدم لى بطاقته واذا بها « مرسى خليل . ترجمان ومقاول » فاجيبه بقولى اشكرك فانى على أهبة السفر وقد رأيت كل شيء . فقال حتى التماسيح ؟ التماسيح ؟ حقا لم أر منها شيئاً ولكن ليس لدى متسع من الوقت فقد بلغت الساعة زهاء العاشرة وقطارى يقوم فى الظهر .

وهل تريدين ياسيدتى أن تبرحى مصر دون أن ترى

التماسيح ؟ فأجد فى صوته دهشة أبقى بها متأثرة فأسأله .
وأين يمكن أن أرى التماسيح ؟

فى كوم امبو فى طريقك الى الاقصر . اسمعى ياسيدتى . اشحنى أمتعتك اليوم بالقطار وأبحرى معى فى ذهبيـة اخى (اخى طيب جداً وذهبيته جميلة جداً ) فننزل فى النيـل وفى هذه الليلة نقف عنـد «العَجَر» فتنامين على قنطرة الزورق تحت الخيمة (قنطرة جميلة جداً وخيمة جميلة جداً) وفى الفجر نسافر الى كوم أمبو وهناك نرى التماسيح ثم تأخذين نفس القطار الذى كنت تريدين أن تركبيه اليوم فتصلين الى الاقصر مساء الغد .

أقف حيرى أمام هـذا البرنامج اذ تبسم لى فكرة التماسيح ولـكن فكرة المبيت تحت خيمة مع خليل واخيه لا تستهوينى كثيراً فيلحظ العربى رفضى فيقول مبتسما : ومع ذلك ففى امكانى أن أريك هنا أيضاً بعض التماسيح وعند ما انظر فى الساعة التى فى معصمى يقول : لدينا من الوقت متسع وينزل الدرج الرخامى مسرعا ويسير بخطوات واسعة نحو قلب

المدينة وانا اتبع اجواخ عباءته المرفرفة واستدارة عمامته البيضاء الكبيرة وانا أكاد أجرى وبعد قليل أقول : اين تذهب ياخليل . أن النيل عن يميننا ؟ فيقول وهو يسرع فى سيره : ولكن التماسيح عن شمالنا . ثم ندخل فى شوارع اسوان القديمة الملتوية ونتغلغل فى السوق الظليل فينظر الينا التجار من أبواب حوانيتهم نظرات الاجلال والاحترام ويدعوننا بمختلف اللغات للدخول عندهم لشراء ريش النعام وجلود النمر وعقود الكهرمان وخفاف القش واسلحة الدراويش وثياب السودانيات وهى ملابس قصيرة خفيفة تتألف من حزام صغير من الجلد محلى بزخرفة بسيطة وببعض الاصداف ولكن خليلا لا يسمع ولا يقف وتسبقنى عمامته البيضاء مبتعدة فى شوارع السوق الضيقة وأخيراً يقف أمام دكان صغير اضيق وأغرب من كل ما عداه من الحوانيت وعلى عتبته يقف صاحبه وهو سورى طويل القامة نحيف البدن يحى بانحناء حتى يكاد يلمس الارض برأسه فقال له خليل بصوت رنان « تمساح » فردد الرجل كلمة « تمساح » وهو يلتفت نحوى

مبتسما فأقول أنا أيضا « تمساح » وانا أحسبنى انطق بتحية عربية أخرى فيدخلنا التاجر فى الدكان ويتقدمنا الى دهليز طويل يؤدى الى فراغ مضاء بنور ضعيف ويقف مشيراً الى السقف قائلا « تمساح » وعند ذلك افهم أن هذه الكلمة لم تكن تحية عربية كما زعمت آنفا وانما معناها التمساح فنظرت فاذا فوق رؤسنا تماسيح معلقة لا يحصى لها عد كأنها ولدت فى الهواء . تماسيح صغيرة خبيثة باسمة تختلف الوانها بين الاخضر والاغبر والاسود فيأمر التاجر عامله النوبى بان يرينا بعضها فيصعد هذا على السلم ويخلع كثيراً منها ويضعها أمامى على الارض ثم يلقى الىّ بتمساح ذى شكل وحشى غريب فأمد يدى وآخذه منه وأنا أشعر ببعض الخوف ولكن تدهشنى خفة هذا الوحش فيقول لى التاجر إنه محشو بالقش ويشير لى الى ظهره الطويل الممتلئ بالاسنان المدببة الشبيهة باسنان المنشار ويقول احذرى أن تجرحك قشور الذيل القاطعة فهذه الحيوانات محنطة بسائل سام وأقل خدش منه قد ينقل العدوى فأتركه بكل سرعة وأسأله قائلة . وهل كل هذه

التماسيح أحضرتموها من كوم امبو ؟ فيضحك السورى ضحكة عالية ويقول : لا يوجد فى كوم امبو ظل تمساح من مئات من السنين . فألقى على خليل نظرة عتب قاسية ولكنه لا ينزعج ويتظاهر بانه لم يسمع شيئا . ولكن السورى يستمر قائلا : يجب أن تصعدى حتى النيل الابيض لكى تجديها وتقطعى مسافة ثلاثة آلاف كيلو متر فيتداخل خليل قائلا : يوجد كذلك بعض التماسيح المحنطة فى كوم امبو — ويقول السورى حقاً توجد تماسيح فى أطلال الهيكل المهدى الى « سبك » الاآه التمساح المسمى آله الظلمات فانه فى أيام حكم « ديونيسوس » كان لهذا الاآه شأن عظيم وكذلك كانت تسبح فى واحة الفيوم فى بحيرة كانت موجودة بها فى ذلك الوقت التماسيح تحت حراسة الرهبان وكانت تقرأ لها الدعوات وتحلى بالجواهر ولكن كل ذلك كان من نحو الالفى سنه . فأنظر الى خليل المبتسم وقد رأيتنى أحسنت صنعاً بعدم ارجاء السفر وعدم قضاء الليلة فى القارب على النيل لكى أرى فى الفجر بقايا تمساح محنط من عهد البطالسة ثم أتأمل هذه

الوحوش الكئيبة وأسائل نفسي : ترى كيف أمكن المخلوقات البشرية أن تعبد حتى فى العصور الغابرة المظلمة هذه التماسيح وتحلى رقابها الشائكة بالجواهر ؟ ويسألني التاجر قائلا : أتريدين أن تشترى لك واحداً منها ؟ فأقول له : يا للرحمة ! لا أبداً . وكلمة ( أبداً ) ككلمة ( دائماً ) تستعملها النساء بحزم وكل من عرف النفسية النسائية المترددة الغير الثابتة يمكنه أن يفسرها فانني بعد عشرة دقائق فقط أجد نفسي مالكة لتمساح فظيع يبتسم بسخرية فتبدو أسنانه الاربع والثمانون ( وقد عدها السورى بعناية واحدة فواحدة وكان بنسبتها مبلغ الجنيهين الذى دفعته ضئيلا جداً ) وبمجرد أن تم الاتفاق يسلم التاجر تمساحه الى النوبى خوفا من أن أغير رأيي فيضعه هذا فوق رأسه ويسبقني مسرعا الى الفندق وعند ما أصل أنا الاخرى ولم يبق على قيام القطار غير أربعين دقيقة أسأل البواب عما اذا كان من الممكن أن يكونوا قد أحضروا لى شيئاً . . . . . تمساحا . فيقول الهر مولر : لا ياسيدتى . للآن لم يأت أى تمساح . يمر ربع ساعة ولم ير للتمساح أثر فأصعد

الى السيارة التي ينتظر فيها سائحون آخرون ذاهبون الى المحطة فافكر بغضب فى أنه من المحتمل أن يكون هذا النوبى لم يعمل الا دورة صغيرة فى السوق ثم عاد بالتمساح الى دكانه . ويسألنى الهرمولر قائلا : واذا وصل الآن . . . . فأقطع حديثه بحركة عصبية قائلة : خذه لك أيضاً . . . . ولا تدعه يتبعنى . وفى نفسى أشكر آلهة الظلمات على أن رسوله المحشو بالقش لن يكون معى بالقطار .

ها أنذا آخذ مكانى فى ركن القطار الصغير ذى الزجاج الازرق الذى يخترق بى الصحراء وعند ما أطل من النافذة أرى جماعة من الوطنيين يتكلمون ويشيرون مضطربين ويسألون الحمالين وموظفى السكة الحديدية وألمح وسط هذا الجمع الصاخب ذلك النوبى مع صبي الفندق ذى البذلة القرمزية يحمل التمساح بين ذراعيه باحتراس ملفوفا بافرخ من أوراق الجرائد وتظهر من طرفى اللفافة ابتسامته الساخرة وذيله القاتل فأتراجع الى الوراء وانكمش وأحاول أن أختبىء منهم ولكن عبثاً فعلت فقد لمحنى الصبي وانقض على الديوان الذى أجلس

فيه ووراءه حاشية من الوطنيين وفى أثرهم ناظر المحطة وبعض موظفيها المطربشين ثم تتلو ذلك تحيات وابتسامات واعتذارات فقد ذهب النوبى حقاً الى الفندق ولكنه سلم التمساح لسيدة أخرى ويقول لى : عفواً يا سيدتى فقد حسبتها أنت . لانك تعلمين أننا معشر النوبيين تتشابه لدينا جميع السيدات البيض وليس فى استطاعة أعيننا أن تميزهن من بعضهن ثم يلقى التمساح بين ذراعىّ المرتجفين فى داخل العربة ثم تتجدد التحيات والانحناءات بينما أنا أضطر بسخرية مرة الى الرد على هذه التحيات « بالبقاشيش »

يجرى القطار فيرقص التمساح رقصاً غير منتظم على الشبكة الصغيرة الموجودة فوق رأسى وأنا أنظر اليه من آن لآخر ويلقى الزجاج الازرق لونا سماويا شاحبا على ابتسامة التمساح الشيطانية . . ترى هل يجب أن أحمل معى فى البر والبحر . فى أفريقيا وأوروبا . على الحدود والجمارك هذا الحيوان البغيض ؟ ؟ . . . لا أريد أن أفكر فى ذلك . . .

يجرى القطار على طول ذهب الصحراء اللانهائى منسابا

فوق منحنيات النيل الواسعة ويندفع نحو الاقصر فتنفتح امامنا جبال العرب وتتسع . هاهى الصخرة الوحيدة التى تسد الوادى الصحراوى . ها هى ماآذن إسنا الدقيقة . ها هى أطلال معبد الكرنك المقهورة . وهأنذا على ساحة طيبة العظيمة حيث يقترن تمثالا ممنون حارسا وادى الملوك العظيمان فيخيل الى أن ريحاً غير أرضية تهب من داخل وادى القبور كأنها أنفاس الابدية الهادئة العميقة !!

٢٠

# مأتم الملكات

ان اقامتى اللذيذة فى مصر تتلفت نحو نهايتها فبعد يوم اخر تظهر لى هذه « الاقصر » المشرقة وطيبة الجميلة ذات التماثيل الهادئة المخيفة وهذه الوديان المطمورة الاسيفة وأطلال الكرنك ورامسيوم وكلها جميعاً كأنها حلم لذيذ كما

تتمثل لى اليوم هنا أوروبا البعيدة بمدنها الحديثة الحديدية وجلبتها العظيمة .

يحملنى القارب بشراعه الكبير المطوى خلال النيل من شاطئه الشرقى البهيج الى طيبة الاموات وفى هذه الساعة المبكرة تبدو المياه زرقاء قاتمة تحت زرقة السماء الجنونية وكل ما حولنا يموج ويضىء بهذه الصبغة اللازوردية الزاهية لون الجعران العزيز على المصريين الذى يسمونه لون الحب فأبرز من القارب وأدلى يدى فى الماء ثم أخرجها تقطر ياقوتا أزرق ويقطع النوبى القبطى أنشودته العربية القديمة التى يغنيها بحارة النيل من عهد بعيد « كل من شرب ماء النيل لا بد وأن يعود اليه » يقولها بصوت عذب رنان فأغمس كلتا يدىّ فى النهر المقدس وأضمهما الى بعضها وأملأ تجويف كفّى بقدر ما تحملان من مياهه وأقول « ليتنى أعود اليك يا مصر . أيتها الارض السحرية . ليتنى أعود الى فخامتك المهجورة ولأيامك الغمر المحجلة ولياليك المخملة ولغروبك الملتهب الجذاب ليتنى أعود اليك يامصر ! » ثم أحسو حسوات صغيرة من هذا

الماء الصائح الخفيف السحرى الذى يترك فى النفس ظمأ العودة الذى لا علامة له ولا يمكن تمييزه

نقترب من ساحل طيبة العظيمة التى رفعت فى العالم قبس المدنية عاليا فى ظلمات القرون الأولى بينما كان فى غربنا الجنوبى لا يزال الفكر الانسانى فى سباته العميق . وهنالك على الشاطئ ينتظرنى يحيى ترجمانى الأمين الذى وجدته فى مساء الامس بمحطة الاقصر فأجده ممسكا مقودى حصانين ضامرين حالكى السواد غائرة أقدامهما فى التراب ويدوران بعيونهما القلقة وآذانهما المشتبهة .

نسافر فى الحال على صهوات جيادنا التى تعدو بنا عدوا سريعا نحو سلسلة الجبال الليبية التى لا تزال بعيدة والتى تقف أمامنا كأنها حصن أبيض منيع والمقابر المرتفعة التى تخفى فى بطونها الحارة اليابسة بقايا أجساد الفراعنة من آلاف السنين . أولئك الفراعنة الذين كانوا يخشون ذرارى الاجيال القادمة اذ ربما تزعج بنظراتها الخسيسة وأيديها العابثة راحتهم المقدسة فحفروا فى اعماق الجبال قبورهم الهائلة التى هى « كاتدرائيات »

حقيقية تحت الارض يرقد فيها الى جانبها الأيسر مولين وجوههم نحو الشرق يرقبون آلة الشمس عند ما يمر بقاربه العظيم ليحملهم معه الى شاطئ الخلود . ولما كانوا يعتقدون بخلود النفس كانت تجب المحافظة التامة على الجسم فلم يكن خطأ منهم اختيارهم أن يدفنوا فى أحشاء هذه الجبال التى تحفظ دون تغيير والى الابد كل ما تؤتمن عليه اعماقها وقد حدث انه ظهر كل شيء جديداً أمام أعين المكتشفين عند ما لمعت مشاعلهم من عهد ليس ببعيد فى ظلمات مقبرة توت عنخ آمون فكانت الاشياء الذهبية تلمع كما لو كانت نظفتها فى الليلة السابقة الأيدى التى وضعتها منذ خمسة وثلاثين قرنا فلم يتطرق الفساد الى الاطعمة ولم تتغير الملابس التى كانت معدة للملك الشاب ليلبسها عندما يقوم من رقدته وأما الزهور الرقيقة المقطوفة من شواطئ النيل من خمسة عشر قرنا قبل ميلاد المسيح فكانت تستند الى حائط ذلك الدير الغائر تحت الارض ولم يصبها أى شيء غير الجفاف ومن المحتمل أن علماء الآثار عند ما يفتحون غداً الناووس الذهبي الذى لا يزال يحتوى على جثة الفرعون

ويفكون الأربطة الطويلة التى تلفها سيجدون أنفسهم أمام شاب لم تلمس هيئته ولم تتغير سحنته وتكاد الشعلة الحيوية التى حركته فيما مضى تكون قد انطفأت من أيام قلائل .

ولكننا لن نجتلى فى هذا الصباح محاسن وادى الملوك لأن فكرى اتجه نحو ايطاليا ونحو الاكتشافات العظيمة التى قامت بها البعثة الايطالية تحت ادارة العالم العظيم ارنست سكياباريللى فدفعنى الى البدء بزيارة وادى الملكات حيث تنعزل الملكات فى خضوع ولو أنهن ميتات عن ازواجهن واسيادهن الاقوياء كما لو كن فى مأتم وبعد أن اجتزنا معبد بطليموس العجيب المسمى « دير المدينة » نلتفت فجأة نحو الغرب ثم نتغلغل فى واد ذى جمال عظيم وبينما نسير فوق الرمال اللامعة بين الحصن المزدوج ذى الصخور الشاحبة ونصل بعد قصير من الوقت الى « بيبان الحريم » وتقف الخيول أمام الحاجز الطويل الذى يضم حفائر المقابر الاكثر أهمية يخرج حارس عربى من كوخه ويحضر لفتح الحاجز وبعد أن يفحص تصريح دخولى يحيى باحترام فأدخل بينما

يقف يحيي خارجا بالجوادين ويقول لى الحارس : هل تتفضلين بالانتظار قليلا لاننا أخبرنا بوصول جماعة من سائحى كوك ولا يمكن أن يتأخروا كثيراً وبذلك يمكنك أن تدخلى معهم وتزورى المقابر برفقتهم ؟

لا أريد أن أسير مع سائحى كوك . أريد أن أذهب وحدى وبمفردى

فقال لى بدهشة: وهل تريدين أن تنزلى فى المقابر وحدك؟

فأكدت له انى أريد أن أكون وحيدة ولا أدع تأثيراتى تضيع بين لغط السائحين وفصاحة المرشدين فيقول : ولكن ألا تأخذين معك ترجمانك على الأقل وأنا أتولى عنه حراسة الخيول ؟ فاقول له ليس ذلك ضروريا ثم أسير نحو احدى الفتحات العميقة المستطيلة فى جانب الجبل فيجرى الىّ الحارس مسرعا وهو يقول :

ولكن قفى يا سيدتى وانتظرى هنا فان القبور حالكة الظلام وليس بها أى ضوء واذا كان لابد من النزول فيجب أن تحملى معك مصباحا — ثم يختفى فى كوخه هنيهة ويعود

وفى يده قنديل زيتى موقد لا تكاد شعلته الشاحبة ترى فى ضوء النهار العظيم ويقول لا تنسى أن تهزيه كثيراً والا انطفأ ثم يستمر قائلا وهو ينظر الى فى دهشة . ولكن ألا تخافين يا سيدتى ؟ فأهز كتفى وأنا أرى أن التخويف حيث لا داعى للخوف يكون من باب أولى اغراء وتحريضا . فقال حقا انك جريئة شجاعة حتى لكأنك نمرة فى غابة (ديورديورا) فاهز المصباح بقوة وانحدر فى دهليز مربع ذى سقف مقوس مرصع بالنجوم ومنه الى كهف حار مظلم وانا اهز دائما المصباح الذى تنخفض شعلته لقلة الهواء

انظر حولى فاذا الجدران مغطاة بنقوش ورسوم عجيبة يدهش الانسان لجدة الوانها وبهجتها فاسأل نفسى قائلة . بأية معجزة أمكن العبقرية الانسانية أن تنجز هذه الاعمال الفنية العظيمة فى هذا الظلام الدامس ؟ وأرى فى كل مكان صورة الملكة الشابة الرقيقة ذات الجسم الرشيق والخدود الوردية والعيون الكحيلة والتى تظهر فى نحفها الشديد ككل النساء المصريات منذ خمسين قرنا . ولكن ألا يكون من الخطأ أن

ينسب هذا المحيا النحيف وهذين الخصرين النحيلين وذلك الصدر البارز الى طريقة فنانى ذلك الوقت فانه ظهر من ابحاث العلامة « چوڤانى مارو » التى عملها فى مئات من الهيا كل العظمية المكتشفة فى « جبلين » أن التراكيب العظمية النسائية ما كانت تختلف عن تراكيب الذكور التى كانت هى الاخرى نحيفة وان النساء المصريات كن كما نراهن ممثلات اشكال ذات نحافة غير عصرية واجسام دقيقة

انزل فى سلم آخر الى اعماق محراب ذلك القبر الذى يشتمل على الناووس فأرى على واجهة الباب الهة الحقيقة ناشرة اجنحتها ذات الالوان المختلفة . وهنا أيضا على الجدران وفوق الاعمدة الاربعة العظيمة نتبع الملكة « نيفرتارى » الجميلة فى حجها الى وادى الملوك فنجدها راكعة تعبد آله الشمس منحنية أمام معبد « أوزوريس » الجبار ومحكمته المخيفة المؤلفة من الوحوش والشياطين وهؤلاء يزنون فى جلال ورهبة قلب الملكة الصغير فى ميزان فيضعونه فى كفة وفى الكفة المقابلة ريشة فاذا لم يكن القلب اخف وزنا من الريشة

فوارحمتاه للملكة المسكينة فسيقضى عليها بالعذاب الأبدى ولكن آلهة الغرام والملذات تجرى اليها وتحميها من آلاف الآلهة الأخرى المخيفة . آلهة ذوات أجنحة وأخرى فى أشكال الاسود والعقارب والجعارين

أعود خارجة الى العراء فى ضوء النهار الباهر وأرى أن جماعة كوك قد وصلت الى الحاجز الخارجى بنقبها الخضراء وأصواتها المرتفعة وضحكاتها وجلبتها وأرى مع الحارس نائباً يفحص جوازات الدخول — ترى هل يجب أن أنتظرهم ؟ لا . أبداً — وأمشى مسرعة أتتبع حائط الجبل الشرقى حيث أجد مدخل قبر آخر رقم ٥٢ هو قبر الملكة « تيتى » فأصلح نفسى وأنظم ملابسى بسرعة وفى هذا الكهف لا يوجد سلم للدخول بل انحدار صخرى ينزل منه الانسان منزلقاً فتنفتل الاحجار تحت قدميه ويشعر الانسان فى داخله بانقباض واختناق وقد خيل الى عند دخولى ذلك القبر أننى أترك خلفى عالم الاحياء — اتغلغل فى دهليز طويل ومنه الى كنيسة واسعة ذات أربعة أضرحة ترقص على جدرانها آلاف الشياطين

وتنساب الثعابين الكبيرة وترى الآلهة « سلكت » وعلى رأسها عقاربها تحلق فى بعينها الحولاء المخيفة ثم يحتبس الهواء فأضطر الى هز المصباح فيشتعل ويزداد لهيبه لحظة قصيرة ثم سرعان ما تنخفض وعلى حين بغتة أحس كأن رعدة تسرى فى عروقى فأفكر فيما ينالنى من الرعب اذا ما أصابنى مكروه فى داخل هذا القبر الذى لم يرنى أنزل فيه أحد والذى لو صحت بأعلى صوتى لما سمعنى منه انسان ثم أهدأ وأقول : ولكنى لا أشعر بشىء مطلقاً ولا بأى ألم . فلم هذه التخيلات هل أريد أن أمزح مع الخوف ؟ لا أنا أريد أن اكون نمرة غابة « ديور ديورا » ! ثم أدخل بقدم ثابتة الى غرفة الناووس الفسيحة وأتقدم لأرى فاذا هى خاوية على عروشها . . . . ما أعظم هذا السكون ! !

فى هذه اللحظة تضعف شعلة المصباح وتستمر فى نقص ويظهر انها اختنقت هى الاخرى من ضيق هذا المكان فأهزه وأرفعه الى الأعلى ثم أخرج وعلى بعد خطوتين منى أرى صورة مشئومة ذات أيد ناحلة ونظرات واسعة مملوءة بالظلمات

ءيون مخيفة خيل الى أنهـا تنظر الىّ بغضب وتهديد وأنا
بطيء في المحراب بين أكاليل الزهور الذابلة فارتعدت وخيل
الىّ أن الموت نفسه هو الذي يحملق فيّ هكذا . فأقف جامدة
تأمله . . . أأقف دون حركة ؟ نعم . ثم ينطفيء المصباح
ببطء — ها أنذا في الظلام وتحت الارض وليس معي في هذا
السكون العظيم وهذه العزلة التامة غير هـذه الميتة فيدق
قلبي دقات عنيفـة . . آه . كيف أجد السبيل الى الخروج
كيف يمكنني أن أعود الى ضوء الشمس ؟ وعلى حين غفلة
شعر كأن شيئاً يتحرك بجانبي . رباه . . . لست واهمة انني
سمع شبه وقع أقدام . فيوقفني الرعب جامدة في مكاني
يسري في جميع جسدي جمود ثلجي يمسكني من ذؤابتي الى
خمص قدمي . رباه . . ترى أي كائن حي يوجد معي في هذه
المقبرة ؟ . آخذ في الاصغاء وأرهف أذني جيداً . ها هوذا .
ها هو لايزال شيء يهب على خدي كأنه نفخة أو كأنه تنفس .
ماذا أفعل ؟ ثم أصرخ صرخة صماء في هذا الكهف الغائر
أترك المصباح يقع من يدي على البلاط فتسمع له قرقعة

معدنية . ثم أزحف مرتعدة وأنا أتلمس الباب . لا أدرى أين أتوجه وأصطدم فى الجدران ويلتطم وجهى بالأعمدة وأتعثر بالحجارة فأقع على ركبتى ثم أنهض وأتقدم فلا ألبث أن أتعثر فى الحجارة وأقع فأزحف على ركبتى ويدق قلبى دقات جنونية حتى ليخيل الى أننى على وشك أن يصيبنى اغماء أو سكتة قلبية :

أين ذهبت نَمُرة « ديور ديورا » ؟ ؟

* * *

أسمع أصوات ووقع أقدام وضحكات . . . آه . انهما جماعة كوك ( لك الله يا جماعة كوك المحبوبة ! ) تنزل فى المقبرة بمصابيح ومشاعل موقدة ومرشدين وحراس وأسمع الترجمان يقول ( وياله من صوت عذب لذيذ ! ) نحن الآن فى مقبرة الملكة « تيتى » التى تبعثرت أشلاؤها . وسترون الآن فى المحراب المجاور امرأة شابة تدعى «المغنية» هى صديقة الملكة التى شاءت أن تدفن الى جانبها

فأنقض فرحة بهجمة شديدة نحو هـذه الأصوات

رتلك الانوار ولكن كان أسبق مني فى الخروج من المحراب خفاش كبير هو الذى هب على وجهى وكنت أحسبه تنفساً أو نفخة !

٢١

## عبير شرقى

أتريدين يا عزيزتى رأيى الصريح ؟ تقول ذلك فلورا وهى تسند ظهرها الى الوراء على كرسى من القش وتضع ساقا على ساق فيبدو جوربها الحريرى اللامع . أما رأيى فى مصر فلأن تسمعى بها خير من أن تنظريها . فصحت قائلة : يالك من مسكينة ! ما هذا الذى تقولين ؟ فأعادت فلورا عبارتها المدهشة وضربت بيدها المتلألئة على الجرس الفضى المستدير تنادى خادما

وقد وجدت هنا فى الاقصر صديقتى الساخرة عند عودتى أمس من وادى الملكات بعد ان كنا افترقنا فى القاهرة

من نحو شهر حيث ذهبت مع رفقائها الى سفارة وذهبت أنا للبحث عن زغلول باشا ولم أسمع عنها شيئاً كما لم تخطر لى ببالى . وفى ليلة الأمس وأنا اجتاز دهليز فندق ونتر بلاس الفيتها جالسة فى الشرفة وعلى ركبتها رواية فرنسية وفى فمها سيجارة وكانت تتثاءب وهى تتأمل النيل يسطع تحت سماء من مرجان فناديتها فالتفتت نحوى ولما رأتنى القت الكتاب على الأرض وهرولت الىّ وهى تقول : هل هو أنت ؟ وعانقتنى وقبلتنى وهى تقول الحمد لله رب السماوات . فبادلتها العناق باسمة وقلت لها : ما كنت أعرف أن حضورى يسبب لك كل هذا السرور ! فقالت : ولا أنا . ولكن يجب أن تعرفى يا عزيزتى آنى الى أى حد بلغ بى السأم والضجر — ثم اخذتنى الى شرفة حديقة النخيل ولما أخذنا مكاننا منها قالت : ولقد بلغ تعبى من الحياة الى حد الهذيان وحتى المرض الشديد

ولكن كيف يمكن أن يتضايق الانسان فى مصر يا فلورا ؟

عند ذلك أظهرت ازدراءها وعدم احترامها لهذه

الارض البهجة فسألتها قائلة : هل أنت وحدك هنا وأين أصدقاؤنا الآخرون ؟ فقالت الآخرون ؟ فقلت لها نعم رفقاؤنا في السفر امرأة أخي والمصور المريض بالنورستانيا وصوفيا وأورتنسيا والمهندس والجميع

بالله لا تحدثيني عنهم . انهم هنا . كلهم هنا . واذا قلت لك انني تضايقت حتى اشتد بي المرض فليس الا من وجودهم فقد ضقت بهم ذرعا يجب أن تسمعيهم يا عزيزتي آني فانهم لا يتحدثون الا عن امينوفيس وطوطميس وعن « رع » و « تيا » و « كا » ولقد أصبحوا مجانين جديرين بأن يعودوا عشرة مرات الى قبر « تي » ليحلوا خطا واحداً من الخطوط الهيروغليفيه وبأن يبقوا أياما كاملة يتأملون الغروب

فقلت لها . أياما كاملة ؟ انك تبالغين دون شك !

لا . انه لكذلك وأوقدت سيجارة أخرى وهي تقول — كفى ولا نتكلم عنهم بعد . ولندع ذكراهم فان هؤلاء الناس يخرجونني من كل منافذي ولنتناول كأساً من « المونت جوليب » ثم تطلب من الخادم الذي ينحني أمامنا

ذلك الشراب العطرى ولـكنى أقول للخادم اعطنى شايا وأسألها قائلة : الا ما أخبرتنى ماذا فعلت منذ افترقنا ذلك الصباح فى فندق شبرد ؟

لقد عملت نفس الأشياء المعتادة — وكانت فلورا تنفخ الدخان فيخرج من خياشيمها الدقيقة ملتوياً كأنه ثعبـان صغير — كنت فى دار الآثار العربيـة والمتحف المصرى وجبل المقطم وعين موسى وزرت القناطر الخيرية والغابات المتحجرة كما زرت المساجد والاسواق واشتريت سجاجيد من صنع بخارى ونسخاً من القرآن واطباقاً من رودس مكتوبا عليها « صنعت فى المانيا » وعاديات يعملها المصريون هنا فى أيام الجفاف فقلت لهـا ولـكن ألم تكونى فى منفيس وهل لم تذهبي الى دندرة وابيدوس ؟ فقالت نعم فلقـد تعسعست فى برودة المقابر وظلامها وغامرت بالاختناق فى بطون المقابر وقد أقلقت شوكتى الظهرية وأنا اقفز فى الصحراء والوديان فوق هذه الحمير المرتعدة وخيول الصحراء الشيطانية

فقلت لها كان يمكنك أن تسافرى على ظهور الجمال

نعم نعم . حدثيني عن الجمال التي عند ما يكون الانسان على الأرض يراها مغرية جذابة كأنها الكراسي الهزازة ولكنه اذا ما ركبها يخيل اليه أنه فوق قمة مأذنة في ساعة زلزال شديد ولقد عملت كل سياحتي الى سقارة على ظهر جمل سوداوى مريض بالوهم كان لا يفتأ يرغى ويزبد وكان يدير رأسه ناحيتي بين آن وآخر وينظر الىّ بعيونه الواسعة المخيفة واؤكدلك يا عزيزتي أن الجمال لتضايقني حتى لتكاد تخرجني من كل منافذى

فضحكت وقلت لها غريب هذا ! كيف لم تغير مصر منك شيئا . هل لم يترك فنها ولا عظمتها أى أثر فى نفسك وهل لم يؤثر فيك سحرها وجمالها ؟

نعم أثرت فى كثيراً فانني أشكو فى الليل شدة الأرق والسهاد واستيقظ مضطربة ظانة ان غرفتي ملأى بالفراعنة ثم تحسو «المونت جوليب» وتقول كي كي . ان مصر تخرجنى من كل منافذى واننى لأفضل ڤيارجو أومونت كارلو . وبينما نحن كذلك اذ تصل من الدهليز أصوات وضحكات فتقول

فلورا : هاهم الاصدقاء . وكانوا عائدين من الكرنك فيدخلون باسمين الى حديقة النخل وهم يتحدثون وفى الحال يحيطونني باستفهاماتهم وتعجباتهم ويقولون ! ولكن أين كنت ؟

ولماذا لم تكتبي لنا . ولماذا لم تنتظرينا فى القاهرة ؟ فقلت لهم لقد كنت أحسبكم ستلحقون بى فى اسوان . فتصيح أورتنسيا التى كانت تلبس فوق شعرها القصير خوذة محلاة بنقاب أخضر طويل : لم نتمكن من انتزاع أنفسنا من عجائب الأقصر فان هذه الساحرة ملكت علينا مشاعرنا — وتقول صوفيا امرأة المصور . وكما لو كانت طيبة أغلقت علينا أبوابها الاثني عشر لكي تحبسنا وتبقينا الى الأبد أسرى جمالها ومحاسنها . وأما امرأة أخي التى لا تهتم فى منزلها الا بنظافته وتدبير شئونه ولا تتحدث عن شيء سوى غلطات الخدم واهمالهم فتقول بحدة : تصوري أنه فى مقابر ديرالبحرى علمنا أن تحتمس وخوناتون هما شخص واحد — وكنت فى هذا الوقت أتجنب نظرات فلورا فتقول أورتنسيا . انك تخطئين وليس تحتمس وانما هو ذلك الساقط رمسيس الثانى

الذى تزوج شقيقته وبناته الثلاث فتقول امرأة أخى : بما أنه كان ملكا فقد فرض عليه الزواج من دمه ويقول المصور مسكين هذا الرجل فقد وجب عليه أن يتزوج كل عائلته . . فتقطع عليه امرأته الحديث بنظرة غضب تلقيها عليه ثم تلتفت الىّ وتقول بلهجة التأكيد : ربما كنت لا تعرفين أنه كان هناك مطالبون بتحرير المرأة قبل ستة عشر قرنا قبل التاريخ المسيحى فقلت لها حقاً لم أكن أعرف ذلك فتقول: هى الملكة حتشبسوتو وتقول امرأة أخى : وهى معروفة أيضاً باسم حاتاسو فانها كانت تلبس ملابس الرجال وتحمل لحية مستعارة وتستخف بزوجها . فيقول المصور بصوت منخفض : الذى قتلها — فتصيح صوفيا واورتنسيا بصوت واحد — ليس صحيحاً . وعند ذلك تقف فلورا على قدميها بغتة وكانت قد بلغت بها السآمة مبلغاً عظيما وتقول . ألا يكون من المستحسن أن نذهب الآن لارتداء ملابسنا حيث توجد هذه الليلة حفلة راقصة ؟

ينقضى العشاء بسرور ورغم عبوس وجه فلورا

وتهكماتها أردت أن يقص الاصدقاء على أخبار سفرهم وتأثيراتهم وما وقع لهم من الحوادث فذكرت لى اورتنسيا انها وزوجها والمهندس ارماندى كانوا يصطادون بنات آوى وصفا مفجعاً اذ تقول: ها نحن أولاء واقفون جامدون على صهوات جيادنا ببنادقنا المصوبة أمام حقل مزروع بقصب السكر وصبيان سود عراة الاجسام يضربون أعواد القصب ويصيحون صيحات شيطانية وعلى حين بغتة يخرج من جميع الجهات قطيع من بنات آوى كأنها الكلاب الكبيرة فنبتدرها باطلاق النيران عليها وكان ذلك مؤثراً حقاً. فسألتها قائلة: وماذا جرى لبنات آوى؟ فقالت: لقد لاذت بالفرار

تكلمت بعدها صوفيا فقالت لقد دعيت أنا وبيترو الى حفلة زفاف عربى فى القاهرة ولكن لم يسمح له بالدخول فى منزل العروس حيث كان بفناء الدار جماعة من الرجال حالوا بينه وبين الدخول فاضطررت للصعود وحدى فى الحريم وكنت أتخيله حريماً كالذى قرأت عنه فى ألف ليلة وليلة من ستائر وروائح عطرية ونافورات متدفقة ولكن

كلمة « حريم » تفيد أى « مكان ممنوع » ويوجد فى كل البيوت وهو المسكن المخصص للسيدات وحدهن ولا يمكن لأى رجل غريب كائناً من كان أن يتخطى عتبته فضحك المهندس وقال : مساكين هؤلاء ! اذن ممنوع عندهم الغزل البسيط والمزاح الذى لا بأس منه . فتنهدت أورتنسيا وقالت ربما كانوا أسعد منا فان نساءهم لا يشعرن على الاقل بمرارة رؤية أزواجهن يتغزلن غزلا بسيطاً أو غير بسيط مع نساء أخريات ولا ينظرنهم كل ليلة يضمون الى صدورهم مخلوقات نصف عاريات وألقت أورتنسيا نظرة صائبة الى المائدة المجاورة حيث كانت تجلس فتيات أوروبيات فاتنات الجمال وتلوح على محياهن سيماء العز والرفاهية ثم تستمر صوفيا قائلة : دخلت عندئذ ذلك المنزل وحدى وأنا أحمل فى يدى باقة من الزهر لأقدمها للعروس واخترقت غرفاً مختلفة كانت تجلس فيها على الارض نساء عجوزات يصلين ويرتلن واتجهت نحو الغرفة الأخيرة التى كانت تنبعث منها نغمات الاعواد والدفوف وضحكات فضية رنانة وتصفيق يدوى منتظم

وقبل أن أبلغها بلحظة بسيطة سكتت هذه الاصوات والنغمات فاضطررت لأن أقف على عتبة الغرفة وكانت تتلألأ بالأنوار وتزدحم بأسراب من الفتيات جالسات على الارض متقاربات بعضهن من بعض وكلهن معتدلات فلم تهتم لى واحدة منهن ولو أن بعضهن أدرن نحوى وجوههن لينظرننى ثم عدن الى أحاديثهن وطربهن وكانت أغلبهن جميلات سمينات رائقات اللون مكحولات الأعين وكانت ترى فوق ديوان مستند الى الجدار أربع نساء يجلسن بملابسهن المزركشة ومغطيات بعقود ومسكوكات فسألت قائلة بالفرنسية : أين العروس ؟ وأنا أنحنى نحو الصبية التى كانت أقربهن منى — هل هى واحدة من هؤلاء الاربع ؟ فضحكت وهزت رأسها وقالت : هؤلاء هن الراقصات . فقلت : راقصات ؟ وكيف يستطعن الرقص فى هذا المكان الذى ليس فيه متسع لقدم ؟ فحدقت فىّ مندهشة وقالت ولماذا يجب أن يقمن على اقدامهن عند ما يرقصن ؟ وفى هذه الاثناء ابتدأ ثانياً التصفيق اليدوى وضرب الدفوف فمدت النساء الاربع الجالسات على الديوان

أذرعهن المقوسة الى وجوههن وأخذن يتثنين ويأتين بحركات هى مميزات الرقص العربى وفى هـذا الوقت كانت العروس فى الدور الأعلى محتبسة فى خدرها مع أمهـا وبعض أترابها يؤنسنها فى موقفها الرهيب لأنها جرياً على العادة ستزف الى رجل لم تره عينها من قبل فصاحت أورتنسيا. وهل لم يرها زوجها واذا لم تعجبه فما العمل ؟ فاجابت صوفيا بقولها لقد أرسل سبع نساء من عائلته لرؤيتها فلما اعجبتهن قلن له انها جميلة . ولقد كانت جميلة حقا — وهل رأيتها ؟ نعم فقد أخذتنى فتاة صغيرة الى الدور الأعلى لكى اتمكن من اهدائها زهورى وابلاغها تهنئاتى وكانت جالسة دون حركة تحت قنـاعها الابيض والى جانبها صبيتان ممسكتان بشمعدانين موقدين فى شكل كهنوتى فقبلت زهورى وتهنئـاتى بايماءة صغيرة برأسها وعادت الى جلستها التمثالية بين الشعلتين اللامعتين وفى هذا الوقت دقت الساعة الحادية عشرة فاقبـل العروس وبرفقتـه أبوه واخوته وكلهم يرتدى ملابس سوداء على الطراز الاوروبى ولـكن كان على رؤسهم الطربوش الاحمر

رمز الوقار والاحترام فاقترب الشاب وكان يظهر عليه التأثر الشديد ورفع نقاب العروس عن وجهها وبقى لحظة يتأمل جمالها ثم انحنى يقبل جبينها ونطق بفخامة واجلال بصيغة السنة « باسم الله » ثم وضع فى معصمها سواراً من ذهب هو رمز عبوديتها الاختيارية

سكتت صوفيا وكان الخدم يمرون علينا وهم يحملون فى قوارب صغيرة لامعة من الثلج ومزخرفة باعلام صغيرة وبانوار مختلفة وهنا خرجت فلورا من صمتها الذى التزمته مدة من الزمن وصرحت تصريحاً خطيراً غير منتظر قائلة : وأنا أيضاً كنت فى «محششة» ! — هل كنت فى «محششة» وكيف كان ذلك . ومتى ومع من كنت . ولماذا لم تخبرينا ؟ فضحكت فلورا وقالت ما كنت أريد الاعتراضات أو الأوامر والنواهى . فصاحت اورتنسيا . ولكن أى نواهى . لقد كنا نأتى نحن أيضاً معك . فاحتج الأزواج واستمرت فلورا تقول . لقد اتفقت مع مس كاى الأمريكية التى كانت معنا فى فندق شبرد على أن نذهب ليلا مع الترجمان عبد الله

فلبسنا ملابس بسيطة سوداء وخرجنا من الفندق فى منتصف الليـل وأخذنا عبد الله وسار بنـا فى حى . . . . . وهو حى حقير به نساء من جميـع الملل والنحل متزينـات متلألئات ومعروضات فى أماكن مفتوحة على الطريق حيث يبقين طوال الليـالى فى الانتظار وخلفهن ستائر متعددة الالوان تخفى وراءها غرفا وايوانات فأسرعنا بالخروج من هـذا المكان المقبض واخترقنـا طرقا مظلمة ضيقة الى أن وصلنا الى رحبة فسيحة يضيئها مصباح بضوء بسيط فدق عبد الله ثلاث دقات على باب بيت صغير منخفض فرد عليـه أحد الموجودين من خلف « المشربية » وفتح لنـا البـاب شيخ كان يتصنع أنه قائم من النوم وأغلقـه وراءنا بسرعة وأنا أعترف بأننى دخلت وقلبى يدق دقا عنيفـا فى ذلك المكان الذى كان يدل شكله على أنه قليل الطمأنينة ونزلنا ونحن نرتعد فى سلم كان يتدلى تحت أقدامنا متعمقا فى بدرون وكنا ننظر خلفنا من آن لآخر لنرى ما اذا كان عبد الله يتبعنـا واجتزنا دهليزا مفروشا بالسجاجيد الوثيرة التى كانت تهدئ

خطواتنا وكانت تسمع من آخر المدخل موسيقى ضئيلة وأنشودة رفيعة من ثلاث مقطوعات يتخللها تغريد حاد من بلبل صغير . ثم دخلنا فى ظلال بهو مضاء بأنوار حمراء فى جو ممتلىء بدخان كثيف فرأينا اشكالا لا تتحرك فوق مقاعد واطئة فى شكل دائرة طلب منا ذلك الشيخ أن نجلس الى جانبهم ولكن لما كنا لا نريد أن ندخن « بالجوزة » دخان الأفيون أو الحشيش قبلنا بدلا منها سيجارة ذات رائحة مجرمة وبمجرد ان أشعلتها اختلطت أفكارى وأتذكر أنه أصابنى نوع من الجنون وأحسست بخفة غريبة وغيبوبة فكنت أرى جدران البهو تتسع أمامى اتساعا عظيما كما كنت أسمع هذه الموسيقى الضئيلة تتزايد وترتفع كأننى فى حفلة جمعت آلاف الموسيقات ويتغير تغريد البلبل الصغير فيصير كأنه صياح آلاف آلاف البلابل فى غابة لا حد لها تلقى فى السماء بصيحاتها الجنونية . ولكنى أسمع على حين بغتة مس كاى تنادينى باسمى وكانت واقفة الى جانبى وهى ترتعد وتقول : لنذهب . دعينا نذهب من هنا . أننى أخاف ! وعند

ذلك ينتابنى أنا أيضا احساس بالخوف ويتملكنى الرعب فأقوم وأتبعها وأتخلص من هـذا التخدير الذى يتقاص فى مخى ثم سرنا نترنح كالسكارى واخترقنا البهو وعبرنا الممشى وصعدنا الى السلم وفتح لنا بعضهم البـاب وبمجرد أن صرنا فى الخارج واستنشقنا هواء الليل النقى درنا بوجوهنا نبحث عن عبد الله فاذا هو الى جانبنا ينظر الينـا بابتسامة خبيثة ويقول : كيف وجدت الحشيش يا سـيدتى ؟ فقلت له انه لقبيح . وعلى حين بغتة رأيناه يلتفت الى الوراء منزعجا ويرهف أذنه للسمع وكانت تسمع وقع أقدام منتظمة آتية من العطفة المجاورة وتقترب منا : انها دورية عساكر ! !

فأمسك عبد الله كلا منا من ذراعها وسار بنا عدوا : فخرجنا فى الوقت المناسب ! !

انتهى العشاء وكانت تسمع فى البهو الكبير أصوات الرقص الهادئة وألحان الرقصات الجديدة ولكن لم تشعر واحدة منـا حتى ولا فلورا نفسها بالميل الى هذه الموسيقى وهذه الضوضاء العالمية فنخرج الى الشرفة تاركين الرجال فى

غرفة التدخين بين « لنستور وكاونترو » وطراوة الليل ونسيمه يهدئان أعصابنا فنجلس على مقاعد القش نتأمل جريان النيل تحت النجوم المتلألئة ونزول الظلال تحت قمم الجبال كأنها ذرات البنفسج الاشقر ونستمر فى صمت عميق مدة من الزمن ولكن أورتنسيا تلك الروح الخفيفة الساخرة تقول : فوق هذه المياه وفى قارب ذهبي ذى شراع قرمزى مرت يوما امرأة حسناء ذات عيون اقيانوسية واضعة فوق قلب عاشق رومانى شعرها الغدافى الذى يعلوه تاج ثعبانى . . فنظرت الى فلورا وكنت أخشى تعليقا سخيفا أو هازئا ولكن أمسكها هى أيضا سحر الليل الشرقى فغمغمت بصوت منخفض باسم الملكة العاشقة . تلك المخلوقة الشهوانية المتعسفة فى غرامها المفتنة فى موتها كليوباتره . فقالت أورتنسيا . أخت أبى الهول . وقالت فلورا : أخت كل النساء . فمرت أمام مخيلاتنا تلك الرقيقة القاسية ذات القلب المظلم الشهوانى فسكتنا جميعاً وربما كانت كل منا نحن نساء الزمن الاخير اللائى خضعنا لتقاليد جافة وعادات باردة تحلم بأنها تنزل الى شاطئ النهر

الخرافى لتجد فيه زورقا ذهبيا ذا شراع قرمزى يبتعد بها عن
حقائق هذه الحياة الكاذبة الحقيرة الى معر نخم مشرق والى
حب مكتوم والى موت عظيم ! !

## ٢٢

# فى وادى الملوك

شمس . شمس . شمس . شمس تسقط من الاعلى فتعمى
وتحرق وتبيد. شمس تتصاعد من الرمال تترجح وتهتز وتصعق
شمس شمس شمس . . . .

نمتطى صهوات جيادنا ونسير أنا والترجمان صامتين
تحت الشمس الملتهبة وفوق الرمال المتقدة ولا شىء حولنا
سوى رماد وتراب وشمس ورمال . هى وحدها الكائنات
الحية فى هذا المنظر الميت . ذلك المنظر الاصفر المرقط
بآلاف الثقوب هى القبور التى حفرت من قرون خلت لاخفاء
الموتى ثم أعيد حفرها فى قرون أخرى للبحث عنهم ثم تركت
وستترك هكذا الى الابد. تعساً لها من حفائر مشئومة ! انها

لم تكن تحتوى على كنوز أو نفائس بل على بقايا موميات الفلاحين المساكين الذين لا يزال الانسان يلمح فى التراب كثيرا من عظامهم النخرة ويرى أشلاءهم المتناثرة ونتفاً من أكفانهم البالية

نسير أنا والترجمان فى وادى الموت المهجور سالكين فى سفرنا هـذا الصباح طريقنا الذى سلكناه بالامس على شاطئ النيل الغربى ونمر ثانيـة أمام تمثالى ممنون العظيمين المتروكين فى وسط ساحة طيبة فيبدو لنـا هذان العملاقان العظيمان المصنوعان من حجر الجير الاحمر مستويين على عرشيهما العـاليين أحدهما وهو الذى كان يبعث عند بزوغ الشمس صوتا مؤثرا منتظما يجلس الى يمين شقيقه الصامت وقد نقشت على قاعدته الهائلة اثنتى عشرة قصيدة للشاعرة اليونانية « باليللا » ومخطوطات أخرى عن أنشودة الصباح الغريبة وكان المعتقد فى ذلك العهد أن هذه النغمة تحية يبعث بها ممنون الميت فى كل صباح الى أمه النائية ولـكن أصيب هذا العملاق بالبكم على أثر عملية ترميم أجريت له فانكشف

ذلك اللغز الدهرى وظهر أن ريح الصباح عند هبوبها كانت تخترق شقا بين صخوره فتحدث هذه الاهازيج الموسيقية العجيبة

نصل الى جدران « القرنة » الصخرية حيث أقام البدو أكواخهم ثم نلتفت جهة الشرق ونتخطى معبد سيتى ثم نسلك الطريق المؤدية الى « بيبان الحريم » أو وادى مقابر الملوك والى اليمين واليسار وفى كل ما حولنا تتثاءب تلك الثقوب السوداء التى كانت فيامضى مقابر للاموات وأصبحت اليوم مغارات وكهوفا تأوى اليها الضباع وبنات آوى وبعض المخلوقات البشرية فلقد بصرت بأشباح ضئيلة تتسلل من تلك المغاور هم أبناء الصحراء المساكين الذين ألجأتهم الحاجة الى سكنى هذه الكهوف واذ يبصروننى يجرون نحوى ويحيطوننى بصيحات غير مفهومة رافعين نحوى عيونهم المسترحمة المسكينة التى أطفأتها الشمس والفقر المدقع والذباب الذى يتجمع فوق جفونهم ولا يهتمون بطرده عنها اما لعجزهم واما لسوء رأيهم — ويمدون الىّ أيديهم النحيلة ويقدمون

لى أنواعا مختلفة من الاشياء الأثرية

ست . خذى هذه قدم مومياء . هذة فقرة أمير . هذه جمجمة ابن آوى . هذا قط مقدس متحجر ! !

يبعدهم ترجمانى يحي بسوطه الطويل وبصيحة غضب يلقيها عليهم فيبتعدون ولما كنت غير راغبة فى فقرة الامير ولا فى قدم المومياء ولا فى القطط المقدسة فانى أدعوهم الىّ ثانية وأوزع عليهم بعضا من القروش يكافئونى عليها بدعوات صالحات تترك فى نفسى أثرا كبيرا

تستأنف خيولنا عدوها على الرمال بخطاها المنتظمة فنمر أمام بناء شامخ سنجابى اللون هو آخر حارس على حدود عالم الاحياء . هو ذلك القصر الفخم الذى شاده اللورد كارنارفون المسكين ليشرف منه عن كثب على أعمال الحفر والتنقيب الشهيرة عن قبر توت عنخ آمون ذلك الملك الشاب الذى غير اسمه وأنكر عقيدته طمعا فى أن يضع على رأسه تاجى مصر العليا ومصر السفلى . فيعود الى ذاكرتى سوء حظ ذلك اللورد النبيل ومصرعه هو وأصدقاؤه چورج

جاى جولد الثرى وولف جوبل وارشيبـالد دوجلاس ريد الراديوجرافى الشهير ولا يسعنى دون ان أكون واهمـة الا أن أتذكر كلمات هملت الحكيمة « توجد فى الارض والسماء يا هوراس أشياء أكثر مما حلمت به فى فلسفتك » . ومن ثم يأخذ الطريق الطويل المترب شكلا موحشا اذ يزج بنا فى وادى الاقدمين ولا أحسب أن سياحة تكون أجلب للرعب والفزع ولا أدعى للخوف والهلع من سياحتنا هذه فان هذا الامتداد الضيق ينحرف بنا فاذا نحن بين جدارين شاهقين كالحين .وهنا يزول كل أثر للحياة فلا نسمع الأعواء بنات آوى عن بعد أو صوت انسياب الافاعى بين الصخور القريبة أو حفيف أجنحة النسور الحائمة تحت زرقة هذه السماء الصافية ثم لاشىء غيرذلك. وفى منعطف الطريق يختفى العربى فتمر لحظة دون أن أراه وأشعر بنفسى منعزلة تمام العزلة فى هذه الوحدة المرعبة وتستولى على الاوهام فأذهل عن معرفة الزمان والمكان وأفقد كل احساس بالحقيقة

هنا تضل روحى فى منظر اللانهائية والأبدية وتختفى

ذكريات العالم المزدحم البعيد كما تتبدد . وتتلاشى حوادث ومشاعر كانت تبدو لنا على جانب عظيم من الاهمية بما فيها من اكدار وأحقاد واشوق وآمال — وماقيمة حياتنا التى تنقضى فى ايام قصيرة أمام الزمن الذى يعدّ بآلاف السنين ولا يفنى؟ وماذا يهم اذا كنا فى فترة حياتنا هذه أغنياء أو فقراء . معروفين أو خاملين . محبوبين أو مكروهين نحن الذين لسنا سوى ذرات لامعة من الرمال حائمة فى الفضاء نفخة واحدة تقضى عليها وتذهب ببريقها ؟ ولعمرى ان هذا الفناء المحيط بنا ليحدثنا بأنه لا وجود لغير العدم ولا حياة الا للموت ! !

الموت ؟ لا . فان هناك قوة فوق قوته وسلطانا أعظم من سلطانه ذلك هو الايمان ! هنا فى هذه الارض التى تعقد جبال الصحراء فوق قبورها قبة شاهقة صماء يرفرف هذا اللهث الانسانى نحو الالوهية التى تحرك جبين المقابر البعيدة المرموز للامل فيها بصليب من خشب وباقة من الزهر . ذلك الايمان الغريزى فى كل نفس وصاحب السيطرة فى كل العصور يتجلى هنا أيضا فى هذا الخراب الحزين . وهذه القوة القاهرة

التى تثنى اليوم ركب المؤمنين فى ظلال الكنائس والمساجد هى التى كانت تدفع الاقدمين الى عبادة الآله « الشمس »

والشمس فى هذه الأرض الشرقية هى دائما الشمس وذلك الصقر المحلق وذلك القرص الكبير ذو الأجنحة العظيمة. هى قلب العالم الذى يفيض نورا ويضىء كل البيوت الدينية. هى ألوهية عظيمة عالمية فان المصريين عند ما حسبوا أن الارض هى ذلك الشريط الواقع بين الصحراوين وان العالم ينتهى عند الشلال الاول وزعموا أن الليل امرأة ذات جسد مرقط بالنجوم تنحنى باسطة يديها نحو الشرق وأطراف أقدامها جهة الغرب — كانوا يجهدون أفكارهم فى البحث عن آتون المقدس نجم النهار ليطرد عنهم هذه « الظلماء » وطالما وضعوا الاناشيد الشجية فى تمجيده والابتهال اليه وها هو ذا نشيد وضع منذ خمسين قرنا « انك تقوم يا باعث الحياة فتملأ الارض بجمالك ومحاسنك. ويصحب الضوء خطواتك عند ما ينبلج الفجر وتهرب الظلمات عند ما تسدد سهامك » وما كان أسعد شعراء ذلك الوقت لانهم قالوا ما لم يسبقهم أحد

الى قوله واستقوا معانيهم من ينابيع غير مطروقة

ينتهي الوادى بتلاقي الجدارين الصخريين اللذين يسدان الطريق ويتكون منهما حائط عظيم الارتفاع تبدو فى جوانبه فتحات المقابر العميقة أضرحة وادى الملوك التى هى أعظم فخامة وأروع منظرا وأكثر تأثيرا من مقابر الملكات فأنزل ببطء وحذر فى هذا العمق الخانق سلما بعد آخر والحر الشديد يقطع أنفاسى ويسرع من دقات قلبي فأمر من دهليز الى دهليز تحت غابة من الاعمدة التاريخية وتحت البروج المصبوغة وأجنحة البزاة والصقور المبسوطة فوق رأسى . ولما كان هذا القبر مضاء بنور كهربائى ضئيل فقد رأيت الآلهة والشياطين تتلاحق على الجدران وهى تتبع بنظراتها الحولاء هروب روح الملكة التى تنقلب تارة الى شعلة والى صقر تارة أخرى وتطير مسرعة فوق مياه النيل وتسبح فى السماء الممتلئة بالضياء ثم تنزل الى الغرب مقرها الاخير حيث تنخفض الشمس وتنطفىء جذوتها

وربما كان أكبر هذه السراديب تأثيرا وأعظمها شأنا

قبر الملك سيتى الأول الذى هو قصر عظيم تحت الأرض مؤلف من أربع عشرة غرفة جدير بأن يستريح فى ظلاله مشيد هيا كل الكرنك والقرنة وأبيدوس — وليس بالبعيد منه قبر رمسيس الثانى المسمى « قبر عازف القيثارة » نسبة لاحدى الصور المنقوشة على جدرانه . كما يرى أيضا قبر سيزوستريس الاكبر المنهوب والذى يتلمس الانسان طريقه فى داخله وهو يتعثر بين أحجاره المتناثرة وهنا يبدو فى كل مكان رمز المسيحية الذى وضع فوق نصب الرهبان الاقباط الوثنية فى القرون الاولى من عصرنا ويقال انه فى هذا القبر جلس القديس أنطونيو ليستريح قبل أن يسافر الى الصحراء ثم نزل لزيارة قبر أمينوفيس الثانى . . وهنا العمق عظيم هائل والحرارة قاسية حتى ليخيل الى الانسان أنه يرزح تحت ثقل كل هذه الجبال الشامخة فأنزل من سلم يكاد يكون عموديا فى انحدارات متهدمة ودهاليز مستديرة صخرية وأخترق ممرا ضيقا فوق هاوية سحيقة هى بئر حفرت لالقاء الملحدين فى غيابتها . واستمر فى النزول وكنت اشعر باستحالة

العودة ثانية الى ضوء النهار وعلى حين بغتة يقف الانحدار
وينتهى صف الدهاليز الى جدران غرفة فسيحة بهـا سبعة
أعمدة صخرية تقوم فوقها قبتهـا المتلألئة بالنجوم وتتسع
هاوية المحراب تحت قدمى فأقترب منها وأنا أرتعد لاستوضح
فى ظلامها محيط النـاووس المفتوح وبمجرد أن أنحنى يفتح
الترجمان زرا كهربائيا فيضىء بغتة وجه الملك الميت فاذا هو
وجه بلا عيون ولا ملامح ومع ذلك فانه خيل لى أنه يرمقنى
ويحدق فى كأنه يوبخنى على نظراتى التى ألقيها عليه — وعند
ما أعود من ظلام المقـابر خارجة الى الهواء الطلق المنعش
كانت الشمس قد قاربت الى الغروب وتلك هى ساعة مصر
العظيمة عندما تجتمع السماء الملتهبة والارض المتقدة فى شعلة
واحدة وترى لها أنوار باهرة تفوق الوصف فيخيل لنـا أن
السماء ساعة الغروب تكاد تتمزق من كثرة ذهبها كما يخيل
الى أنه من تلك الفرجة العظيمة اللامعة تخرج آلهة مصر القديمة
آتون إله الشمس وتوت إله القمر الشاحب وايزيس المسلية
وهاتور آلهة السعادة وآلهة زهرة اللوتس وآلهـة النجوم

والآهة السحاب والسكون وأوزوريس إله الموت فتعبر كلها بخطواتها الواسعة قمم الجبال الملتهبة — وتهتز هذه الارض التى لا حد لها ولا نهاية فتقوم على أقدامها النصب والتماثيل وتقف على عروشها تماثيل أبى الهول باسطة أعضاءها الجرانيتية وتندفع البزاة والقصور طائرة من أعماق القبور وتخرج البروج من القباب الحدباء لتأخذ مكانها من السماء

بهذا الخيال وفى هذه الاحلام أتركك يا مصر يا أرض السحر والبهجة والجمال . فكم تستطعين أن تريني من الاعاجيب قبل أن تحملنى مياه البحر الابيض الزرقاء بعيدة عن جمالك الفتان — ولا شيء فى الوجود يمكن أن يعدل جمالك فى هذه اللحظة هنا فى ساعتك العظيمة الظافرة وفى مكانك الاقدس

ويهب هواء الصحراء فيمر فوق الرمال كأنه دمدمة أو كأنه صفيق أجنحة هائلة . . . ألا يمكن أن يكون روح الصحراء هو الذى يحيينى ؟؟

ايه يا مصر يا أرض الشعر يا أرض الانشراح

أستودعك الله يا مصر ! ! !

# فهـرس

